مفاهيم الإسلام ١

دور التقوى في الحركة الاجتماعية

جلال الدين علي الصغير

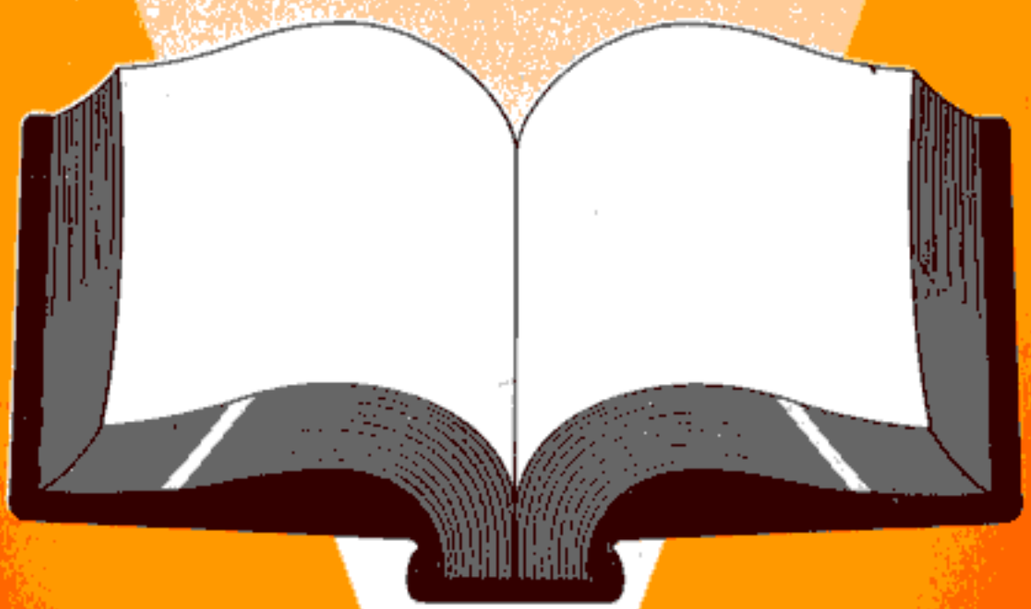

دار الأعراف للدراسات والنشر

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ-١٩٩٣ م

مفاهيم الإسلام
١

دور التقوى في الحركة الاجتماعية

جلال الدين علي الصغير

دار الأعراف للدراسات والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يا أيها الذين آمنوا أن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾.

سورة الأنفال ٨: ٢٩

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون..﴾.

سورة آل عمران ٣: ١٠٢

﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاتقون﴾.

سورة المؤمنون ٢٢: ٥٢

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾.

سورة الحجرات ٤٩: ١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وعلى آله الهداة الميامين.

غالبية المفاهيم الإسلامية، تعيش غربة مريرة في ذهن وسلوك الإنسان المسلم، وذلك نتيجة لعدم فهمها بشكل حقيقي من شأنه أن يفصح عن كامل محتواها. أو لأن هذه المفاهيم قد فُرّغت من محتواها ومضمونها الحقيقي أو ما يشبه ذلك، وبالتالي لتجرد من مدلولاتها الاجتماعية ومصاديقها الحياتية. ونتيجة فقد بقيت بعيدة عن لعب دورها الأصيل في حياة الأمة المسلمة.

ولقد لعبت العديد من العوامل والأسباب في نشوء وبروز هذه الحالة. ولعل من أبرز هذه العوامل، ما يتمثل بالجهد الطاغوتي الذي بُذل في هذا السبيل. سواء كان هذا الجهد قد بذل من الطاغوت نفسه، أو من خلال أجهزته

الثقافية وأبـواقه الاعـلامية. حيث تم تقـديم هذه المفـاهيم بشكل مشوَّه؛ أبعد ما يكـون عن محتواهـا الحقيقي، ضمن أساليب متعددة وأشكال متنوعـة. حتىٰ لقد بلغ الأمـر حداً، أن الإنسان المسلم بدت أمامه بديهيات الإسلام وكأنها بدع تدخل في عالم الإسلام فوقف منها: أما موقف الرافض، أو موقف المستريب... اللهم إلا أولئـك الذين مكنهم وعيهم بالإسلام من استيعاب فهـم ذلك، وراحوا يعملون جاهـدين من أجل تحكيم ذلك في حياة المجتمع الإسلامي.

فما يؤسف له حقاً أن الالتزام بـالإسلام أضحىٰ لـدىٰ الكثيرين تزمتاً يمجّه العصر! فيما راحوا ينعتون الجهـاد ومن يمـارسـه بـالإرهـاب! أو أن تـوصف عمليـة السعي لتحكيم الإسـلام ومنهاجـه في الحياة بـأنهـا سعي مريب، يستهدف إخضاع هذه الدولة أو تلك لما يصفونه بالقـوىٰ الرجعيـة.. الخ.

في الوقت الذي نجد فيه أن هذه الأمور ومثيلاتها تعد من بـديهيات الالتـزام بدين الـرسـول القـائـد محمـد(ص) والفبائه.

وهكذا وجدنـا أن أغلب مفاهيم الإسـلام إما أن تكن قـد شُـوِّهت بشكـل أدىٰ إلى أن تكـون مـرفـوضـة في ذهن العديدين، أو أنها قد أفرغت من محتواها الحقيقي والواقعي فظلت أسيرة أمرين. فهي:

إمـا أن تظل أسيـرة في ذهن الإنسان المسلم دون أن تجد في حياته مصاديقها ومدلولاتها الاجتماعية.

وإما أن تجد في حياته نتفاً من مدلولاتها فتأتي حياتـه عبارة عن مجموعة من التناقضات السلوكية فقد تراه يصلي، وقد تراه يصوم، وقد تـراه يدفـع الخمس والزكـاة إلا أنه في نفس الـوقت قـد يبـادر لارتكـاب جملة من الأعمـال التي تتناقض صراحة ومضموناً مع أعماله التعبـدية، فـالصلاة قـد تجـدها لا تنهىٰ عن المنكـر، والصوم قـد لا تجد فيـه دفعاً نحو المعروف.. والخمس والزكاة قد لا تجد معهما تفاعلاً اجتمـاعياً صـالحاً. وهـذا بطبيعـة الحـال يعبـر عن تنـاقض فكري وسلوكي في حياة الإنسان المسلم وفي آن واحد.

ويؤدي بـداهـة إلى أن تتشـوه صـورة هـذه المفـاهيم والسلوكيات في ذهن الكثيرين، مما يضاعف من أزمـة الأمة المسلمـة، ويعمق من حالـة الإنفصـام بينهـا وبين هـويتهـا الحقيقية، فيسلبها هويتها، ومن ثم لتتحـول إلى شبح أمـة، أو إلى إطار أمة، لا إلى أمة حقيقية، وبـالتالي لتجـد نفسها لقمة سائغة للاستعمار والاستكبار.

ولهذا تأتي هذه السلسلة «مفاهيم الإسـلام» بعـون الله كمحـاولة لـلإسهـام في كشف المحتـوىٰ الحقيقي للمفهـوم الإسـلامي في المـوارد التي يقـع فيهـا الحـديث آمـلاً من المولى العلي القدير أن أوفق لاستيفاء بعض منها.

هذا الكتاب

أما هذا الكتاب فهو محاولة للكشف عن محتوى مفهوم التقوىٰ في الإسلام، وأثر ودور التقوىٰ في حياة الإنسان المسلم، والأمة المسلمة.

ويأتي اختيارنا لهذا المفهوم نظراً لكثرة اهتمام الإسلام به، فكثيراً ما نجد الإسلام يتحدث عن التقوىٰ وضرورة توافرها في شخصية الإنسان المسلم الفردية والاجتماعية. ولا نبالغ إذا قلنا بأن حديث الإسلام عنها وتأكيده على وجودها في حياة الإنسان، والأمة المسلمة، لا تفوقه إلا موضوعات قليلة جداً.

فالقرآن نجد حديثه عن التقوىٰ كثيراً ومستفيضاً جداً. سواء جاء هذا الحديث مقروناً بلفظ التقوىٰ، أو أحد اشتقاقات مصدرها، أو بألفاظ أخرىٰ تؤدي إليها، كالخوف من الباريء عز وجل، والرهبة، والخشية منه، أو الحب له ورجائه.

وحينما نطالع حديث المعصوم(ع) سواء أكان النبي الأكرم(ص)، أو أئمة الهدى من أهل البيت(عليهم السلام أجمعين) نجد أنهم جميعاً يؤكدون على عنصر التقوىٰ أيضاً.

ولو طالعنا ما ينقل من أحاديث وروايات عن الأنبياء

والمرسلين(ع) وأولياء الله الصالحين جميعاً وعلى مد التأريخ لوجدنا التأكيد نفسه أيضاً.

تُرى ما هو السبب في ذلك كله؟

خصوصاً وأننا نلحظ، أن الإشارة في النصوص الشريفة إلى التقوىٰ لا تأتي في جانب دون آخر. إذ أن المطالبة بتوفيرها تأتي في جانب العبادة، كما تأتي في مجال العمل الاجتماعي، ونلحظها في الممارسة السياسية كما نلحظها في الفعالية الاقتصادية. وهكذا في كل شيء يدخل ضمن إطار حياة الأمة ـ أي أمة ـ صغيرة كانت أو كبيرة.

كما أن الملاحظ هنا، هو أن الخطاب الذي يوجهه النص الشريف لا يخص فئة. أو مرتبة اجتماعية دون أخرىٰ. فهو يدعو الجميع إلى السعي لتملّك عنصر التقوىٰ، حيث تجده يخاطب الفرد كما يخاطب الأمة، ويخاطب الفرد العادي في نفس الوقت الذي يخاطب فيه الفرد غير العادي وهكذا الأمر في الشرائح والفئات الاجتماعية.. فالفلاح، والتاجر والعامل، والفقيه، والقاضي، والعالم والطالب، والحاكم والمحكوم، والغني والفقير، والمرأة والرجل، والشاب العجوز، و.. الخ جميعاً يخاطبهم بنفس الخطاب أن:

﴿اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم

إن مثل هذا الاهتمام، والذي من المعتاد أن يقترن بالحث الشديد؛ إنما يشير إلى حقيقة جوهرية تتمثل في محورية التقوىٰ الأساسية في بناء الفرد والأمة المسلمة، أو لنقل في البناء الاجتماعي الإسلامي وفي حركة المجتمع الإسلامي نحو أهدافه.

وإذا ما صح ذلك، فما هي الأسباب والحيثيات التي تكمن وراء هذا الأمر؟ وما نسعى إليه في هذا الكتاب هو الجواب على هذا السؤال.

يبقىٰ أن نشير إلى أن حديثنا هنا سوف لن يتناول الجانب الأخلاقي أو الوعظوي للتقوىٰ، وإنما سيستهدف الإشارة إلى الدور الذي يلعبه عنصر التقوىٰ ضمن إطار التخطيط الإسلامي لبناء الأمة المسلمة. الأمة التي تحمل رسالة الإسلام وتعمل على تحقيق حكم الله من دون أن تتسرب إلى ذاتها عوامل الضعف والتراجع والإنهيار.

وإنني إزاء ذلك لا أدعي إضافة شيء جديد. بل أن هذه المحاولة ما هي إلا انعكاس وترديد بدائي للفكر العظيم لشهيد الإسلام الخالد آية الله العظمىٰ المرجع المظلوم السيد محمد باقر الصدر ـ قدس سره الشريف ـ وإن كان فيها ثمة شيء جديد فالفضل كل الفضل إنما يعود

إليه ولمدرسته الفكرية العظيمة أما إذا كان فيه وهناً أو ضعفاً فإنه مردود إليّ.

أسأل الله أن يجعل ذلك مورد فائدة للقارىء العزيز. ومورد ذخر ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتاه بقلب سليم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، نعم المستعان ونعم النصير.

المهجر في ١٦/ شعبان المعظم عام ١٤٠٧ هـ

جلال الدين علي الصغير

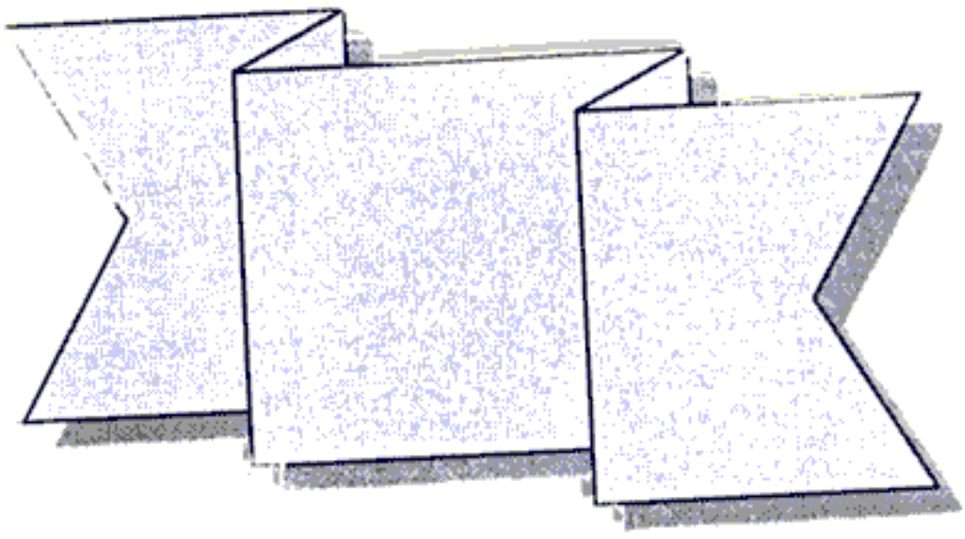

الإهداء

إلى كل أولئك الذين لديهم فعالية أو ممارسة ما في الـوسط الاجتمـاعي أو السيـاسي أو الاقتصـادي أو الثقافي لأمتنا المسلمة . . دعوة من أجل ترشيد ذلك .

أقدم هذا المجهود

المؤلف

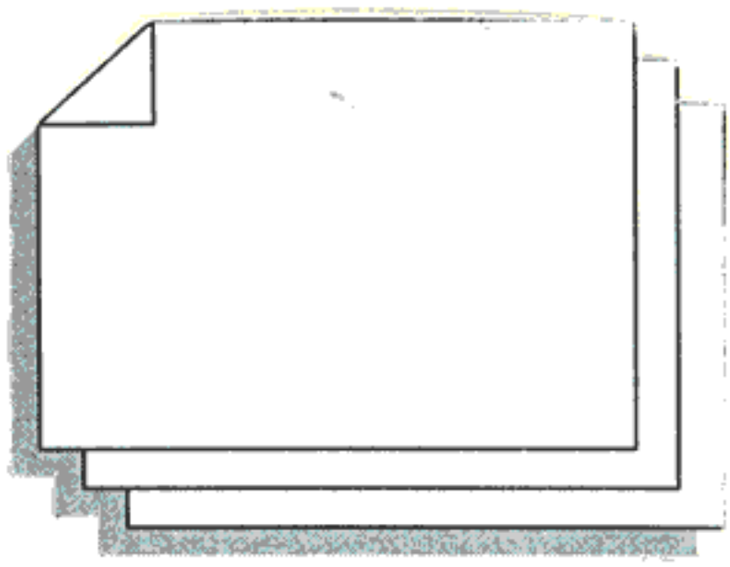

المدخل

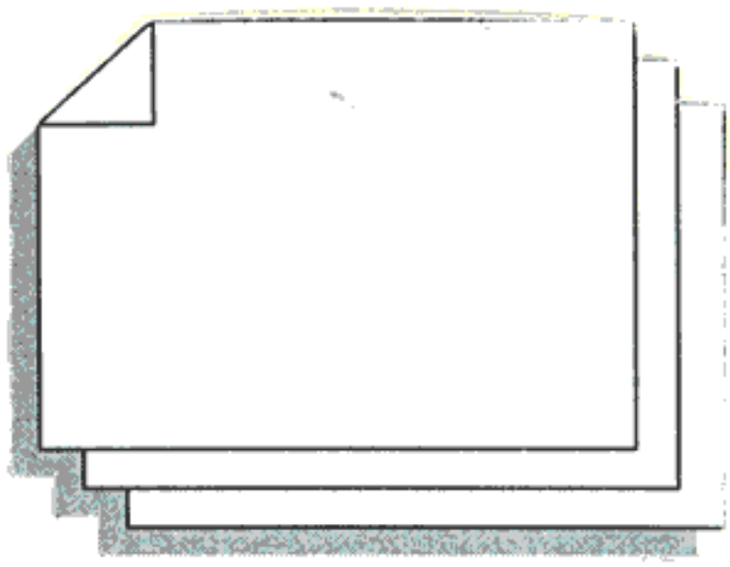

التقوىٰ في اللغة ـ كما يفسرها اللغويون ـ مشتقة من كلمة الاتقاء، والتي تعني الحجز بين شيئين. يقال اتقىٰ ضربة السيف بدرعه. إذا ما حجز ما بين السيف وجسمه بدرعه.

أما في المصطلح فيمكننا القول بأن التقوىٰ هي حالة الالتزام بمجموعة من الروادع والمحفزات التي تدفع الفرد أو الجماعة باتجاه الامتناع عن ممارسة عمل ما من أجل كسب رضى البارىء عز وجلّ. أو تلك التي تدفع به لممارسة عمل آخر من أجل هذه الغاية ذاتها.

فهي تردع الإنسان ـ فرداً أو جماعة ـ عن ارتكاب المحارم؛ لأن ارتكابها يعني الحرمان من رضى البارىء سبحانه وتعالى، وهي تدفع باتجاه العمل بالواجبات لأنها تؤدي إلى النتيجة نفسها.

والتقوىٰ ليست منزلة أو مرتبة في سُلَّم الإيمان،

بحيث أن الإنسان أو الجماعة إذا ما وصلوا إليها لم يعودوا بحاجة إليها. بل هي ترافق الجميع، مهما بلغوا من درجات على صعيد القرب من الله سبحانه وتعالى، ووفقاً للقرآن الكريم فأننا نلحظ أن الخطاب الخاص بالتقوىٰ قد وجه إلى الجميع من دون استثناء حتىٰ شمل أشرف وأقرب الخلق إلى الله سبحانه وتعالى، أي الرسول الأكرم(ص)، وذلك بقوله تعالى:

﴿يا أيها النبي اتق الله، ولا تطع الكافرين والمنافقين..﴾[1].

هذا فضلاً عن بقية الناس من المؤمنين وغيرهم. ومن البديهي عندئذ أن يشمل خطاب الأمر بالتقوىٰ جميع الشرائح الاجتماعية، مهما بلغت من مكانتها ـ تقدماً أو تأخراً، صعوداً أو نزولاً ـ في الهرم الاجتماعي.

وبطبيعة الحال فإن مثل هذا التركيز على عنصر التقوىٰ لا بد وأن يثير فينا تعطشاً لمعرفة أسبابه وعلله. من أجل ذلك لا بد لنا أن نفهم موقع التقوىٰ في البناء الاجتماعي الإسلامي.

---

(١) سورة الأحزاب، ٣٣: ١.

موقع التقوى

في البناء الاجتماعي الإسلامي

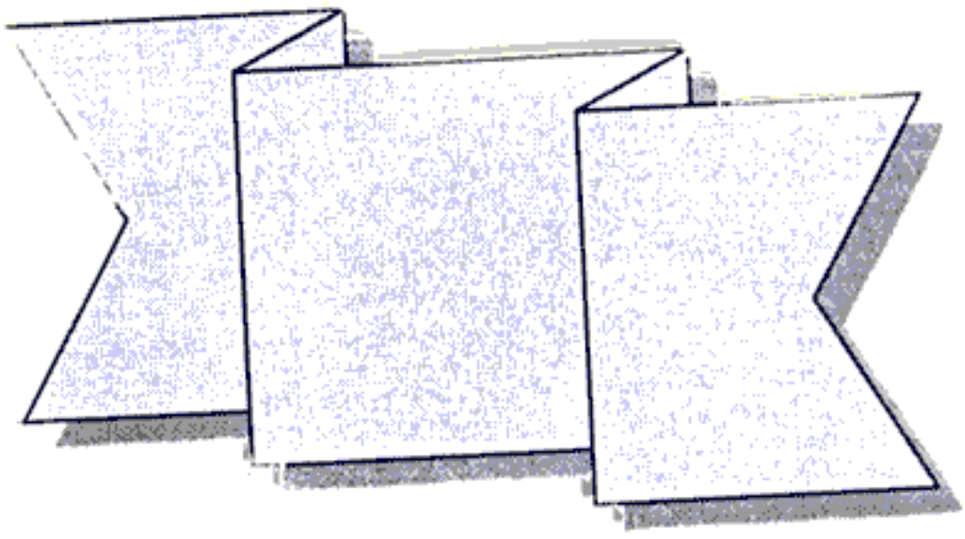

الإسلام دين هداية. والهداية إلى الله سبحانه وتعالى لا تنحصر بجنبة حياتية دون أخرى، ولا تتحدد بفعالية فردية أو اجتماعية دون غيرها، بل هي تمتد إلى جميع مجالات الحياة، فهي لا تتمحور في الأعمال التعبدية التي لها صيغة الطقوس، كما أنها لا تنحصر بهذه وببعض الالتزامات الخلقية والروحية، وإنما تمتد إلى حيث ما امتد وجود الباريء عز وجل. فالهداية قد نلحظها في العبادات. وقد نلحظها في السياسة، وقد نلحظها في التعامل مع الطبيعة وكيفية استغلالها وتسخيرها، وقد نلمسها في الساحة الاقتصادية مثلما نلمسها في الساحة الاجتماعية. وقد نجدها في الساحة العسكرية أو القضائية أو ما شاكل. لأن الباري عز وجل موجود في هذه الساحات جميعاً. إذن لا بد من السعي إليه حيثما وجد:

﴿ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثمّ وجه الله،

إن الله واسع عليم. .﴾[1].

وقد جعل البارىء سبحانه وتعالى عملية السعي هذه، مرتبطة كل الارتباط بالبناء الذاتي للإنسان، والذي يمثل اللبنة التي يقوم عليها البناء الاجتماعي:

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم. .﴾[2].

﴿ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم، وإن الله سميع عليم. .﴾[3].

وهذا الأمر هو أحد أهم الأسباب التي تجعل القرآن الكريم، والرسول القائد(ص) وأئمة أهل البيت ـ عليهم السلام أجمعين ـ يولون أمر البناء الذاتي للإنسان المسلم أهمية قصوىٰ في توجيهاتهم، وتعاليمهم، ووصاياهم. حتىٰ لقد ظن البعض ـ اشتباهاً ـ بأن الإسلام لا يعني بأمور المجتمع بقدر عنايته بأمور الفرد. وقد ذهب البعض إلى أكثر من ذلك، حينما ظن بأن الإسلام إنما هو دين فردي الاتجاه. فيما عوّل على ذلك جمع ثالث فارتكب اشتباهاً من نمط آخر، حينما اعتقد بأن الإسلام ليس أكثر من دين وعظي وإرشادي ـ بالمعنىٰ الضيق للوعظ والإرشاد ـ ولا علاقة له بالمسائل الأخرىٰ.

---

(١) سورة البقرة، ٢: ١١٥.

(٢) سورة الرعد، ١٣: ١١.

(٣) سورة الأنفال، ٨: ٥٣.

ونحن من أجل أن نعثر على إجابة دقيقة على التساؤلات المطروحة حول هذا الموضع لا بد وأن نفتش عن موقعية التقوىٰ في البناء الاجتماعي وفق ما يتصوره الإسلام، ولا بد لنا عندئذ أن نتعرف بادىء ذي بدء على مكونات هذا البناء، والكيفية التي تتشكل بها هيكليته.

إن الآيات القرآنية الكريمة حول عملية التغيير الاجتماعي ـ آنفة الذكر ـ تدلنا على هذه المكونات بشكلها البدائي. فهي تجعل الذات الإنسانية بمثابة البناء التحتي الذي يقوم عليه الهيكل الاجتماعي. وإلا لما جعل الله سبحانه وتعالى عملية تغيير المجتمع مرهونة بتغيير هذه الذات. فالله سبحانه وتعالى لا يغيّر ـ ومن خلال قوانينه وسننه ـ هذا المجتمع أو ذاك إلا شريطة تغير أنفس أفراد هذا المجتمع. ولون التغيير واتجاهه الأخلاقي والمناقبي، سيكون مرتهناً بالطبيعة الأخلاقية التي تحكم عملية تغيير هذه الأنفس. فهذه الأنفس إذا ما تغيرت إلى الأسوء فإن الدمار هو الذي سيكون مصير المجتمع، الذي يتشكل من هذه الأنفس:

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً...﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء، ١٧: ١٦.

ولكن هـذا المجتمع إذا مـا تغيرت نفـوس أفراده إلى الأفضـل فـأن الـرفـاه والسعـادة الاجتمـاعيين همـا اللذان سيرسمان مستقبله:

﴿ولـو أن أهـل القـرىٰ آمنـوا واتقـوا لفتحنـا عليهم بركات من السماء والأرض. .﴾[1].

إذن فـأن هذه الـذات هي التي تتشكـل منهـا أخـلاق وعـادات المجتمع، ومنهـا تنبثق سائـر الظواهـر الاجتماعيـة التي تشكل بمجموعها البناء الاجتماعي العلوي، وهو الذي أشارت إليه بكل وضوح الآية الكريمة:

﴿ونفسٍ وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها. .﴾[2].

ولكن تُرى هل أن هذه الذات هي كل شيء. وأساس كل شيء في عملية البناء الاجتماعي؟

من الـطبيعي أن نقول أنهـا لا تمثل كـل شيء. وإنما هي القاعدة الأولى التي يقوم عليها البناء الاجتماعي. وهذا يعني أنهـا ليست القاعـدة الأساسيـة التي يقوم عليهـا جميع الوجود الاجتماعي. وذلك لأن القول بأن الذات هي أساس المجتمـع لا يـدفـع جملة من الأسئلة التي تبقـى دونمـا جـواب. وأهمها مـا يتعلق بـطبيعـة الجهـة التي تلوّن هـذه

---

(١) سورة الأعراف، ٧: ٩٦.

(٢) سورة الشمس، ٩١: ٧ ـ ١٠.

الذات، وتعطيها صيغتها الجمالية والخلقية.

فالذات التي تنطوي على نسيج متناقض من الاتجاهات والنزعات. هذه الذات ليست هي التي تلون نفسها بنفسها. لأن مكوناتها الجوهرية«الفكر والإرادة» يعجزان عن استيعاب كامل عملية الصياغة الأخلاقية لهذه الذات.

ولا يعني ذلك أننا ننحاز إلى أولئك الذين يقولون بأن الذات إنما هي صنيعة الواقع الاجتماعي. فمن الخطأ بمكان القول بأن المجتمع هو الذي يقوم بهذه العملية. وذلك لأن المجتمع لو كان هو المسؤول حقاً عن ذلك. فإن افتراض وجود من سيتمرد على الواقع الاجتماعي من أجل تغيير صيغته الأخلاقية ومنهجه في تقصي السعادة الاجتماعية. يغدو افتراضاً بخلاف المنطق. على أن المجتمع ـ في اعتقادنا ـ إنما هو صنيعة هذه الذات ضمن تفصيل لا يسعه بحثنا هذا[1].

إذن لا بد وأن تكون هذه القاعدة مستندة ومتكئة بدورها على قاعدة أوسع منها هي التي تضطلع بمهمة إعطائها صياغتها الخلقية الكلية. وهذه القاعدة هي التي تعطيها الشكل الذي بموجبه تتحرك نحو تشكيل البناء

---

(١) فصلنا الحديث عن ذلك في بحثنا: «بحوث في المذهب الاجتماعي الإسلامي».

الأعلى لهـا ـ أي البناء الاجتمـاعي ـ. ولا يوجـد من يلعب هـذا الدور غيـر الدين[1]. فهـو الـذي يحـرك هـذه الـذات ويرشدها نحو تلمس طريق الهدى. ويـردعها من الإنحـراف نحـو طريق الضـلال. وهنا ينبغي الإشـارة إلى أن المقصود من الـدين هنا ليس هـو الـدين التشـريعي أو بكلمـة الـدين المتمثل بمجموعـة التشريعـات والأوامر والنـواهي فحسب. وإنمـا المقصـود هـو البعـد التكـويني للدين في الـذات الإنسانية، والمتمثل بالفطرة أيضاً.

إن الله سبحـانه وتعـالى هو الـذي يغيّر ـ كمـا أشارت الآية الكريمة ـ غير أنه لا يمارس عمليـة التغيير بـذاته. وإلا لمـا بقي لهـذه العمليـة من معنى. لأن ذلـك يعني سلب الإرادة البشرية وبالتالي ينفي أحد المرتكزات الأساسيـة في الهـدف من خلق الإنسـان. وإنمـا أوكـل الأمـر إلى البشـر أنفسهم. ولكن هذا لا يعني أنه ترك الإنسان سدى من دون إرشـاد وتعليم. وإنما قـام سبحـانـه وتعـالى بتبيـان طـريقي الهـدايـة والضـلال في المستـويين التكـويني والتشـريعي، فـرّغب في الأول. وحذر من الثـاني وهو مـا تشير إليـه الآية الكريمة:

﴿**إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً**. .﴾[2].

---

(١) للمزيد من الاطلاع يفضل مـراجعة فصـل عناصـر المجتمع في القـرآن الكريم من كتاب المدرسة القرآنية للسيد الشهيد الصدر ـ رض ـ.

(٢) سورة الإنسان، ٧٦: ٣.

ولكن: ﴿**من يتبدل الكفر بالإيمان، فقد ضل سواء السبيل**﴾[1].

ومن هنا يتضح أن الدين هو الذي يقوم بعملية رسم وبناء وهندسة الأساس الذي يقوم عليه البناء الاجتماعي. أي أن الموقف منه هو الذي يلون الذات الإنسانية، ويعطيها الشكل الذي يبني فوقه البناء الاجتماعي.

ولكن ماذا لو أن الالتزام بالدين تعرّض لخطر الاهتزاز أو الضعف؟ والذي يستتبع بطبيعة الحال تعريض عملية البناء الاجتماعي إلى خطر الاهتزاز والإنهيار وبالتالي يجعل عملية التغيير الاجتماعي في معرض الإنحراف عن اتجاهها الصحيح، الذي رسمه لها البارىء عز وجل.

إن كل ذلك يستدعي توافر عامل من شأنه أن يبقى جذوة الالتزام الديني متوهجة في ذات الإنسان، وحيوية في فعاليتها. ولا يمكن ذلك إلا من خلال إبقاء الإنسان في حالة انشداد إلى الله سبحانه وتعالى. وهذا الأمر يوفره عنصر التقوى. وبالتالي يبقى الإنسان من خلال تقوية التزامه الديني سائراً في طريق الهداية نحو سعادته في الدنيا والآخرة، دونما زلل أو انحراف أو نكوص على عقبيه. لأن هذا العنصر بعمله ضمن إطار الإرادة في الذات الإنسانية

---

(١) سورة البقرة، ٢: ١٠٨.

في مجابهة عنصر فجور هذه الذات الذي أشير إليه في الآية:

﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾.

أقول أن هذا العنصر حينما يعمل كرقيب وكموجّه للإرادة من خلال قرنها بعامل الخوف من الله، والرهبة من عذابه. فإنه في الواقع يقطع أمام الإنسان جميع العوامل التي تجره نحو الإنحراف والضلال عن طريق الهدىٰ.

كما أن عنصر التقوىٰ، يحل مشكلة أخرىٰ شائعة، قد واجهتها جميع الحضارات التي حاولت أن تبني إنسانها على نمط عقائدي معين. وهذه المشكلة هي مشكلة تصادم السلوك والممارسة مع الفكر والمعتقدات. فالإنسان قد يؤمن بالدين بل قد يروّج للدين. ولكن قد نلحظ سلوكه ومسار إرادته لا ترتبط بأي رباط مع ما يؤمن به من أفكار ومعتقدات. وهذه المشكلة التي تشير إليها الآيات الكريمة:

﴿يا أيها الذين آمنوا إنّ كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله..﴾[1].

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه، وهو ألدّ الخصام * وإذا تولىٰ

---

(١) سورة التوبة، ٩: ٣٤.

سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وبئس المهاد﴾[1].

إن هذه المشكلة قد تؤدي إلى زرع الإنحراف، أو السماح له في التوغل في جسم الأمة السائرة نحو هدىٰ الله سبحانه وتعالى من دون أن تشعر بها. وقد توصل بهكذا أفراد إلى مواقع قيادية في حركة الأمة ليجروّ عليها بعد ذلك الويلات:

﴿**وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها..**﴾ الخ الآية﴾. ولعل إطلالة بسيطة على تأريخنا الإسلامي كافية لتعرفنا على الأهمية القصوى التي يجب أن تحظى بها طريقة التخلص من هذه المشكلة. ووفق الآية الكريمة نفسها فإنه لا علاج لذلك إلا عبر تنمية عنصر التقوىٰ في ذات الإنسان:

﴿**وإذا قيل له اتق الله..**﴾.

وذلك لأن عامل التقوىٰ يوحّد ما بين المعتقدات، التي يعتقد بها الإنسان وما بين إرادته. فلقد أشرنا سابقاً إلى أن الذات تتكون من عنصري الإرادة والفكر.. وليس ثمة صعوبة في أن يتقبل فكر الإنسان الفكر الديني في كل جوانبه ويتقبل عن اعتقاد كل ما يرتبط بأصول الدين. ولكن

---

(١) سورة البقرة ٢: ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

الصعوبة هي صعوبة كيفية تطويع إرادة هذا الإنسان لكي تتوافق مع ما ينسجم وتفكيره الديني. إن (قارون) كان من خيار قوم موسىٰ (عليه السلام): «**إن قارون كان من قوم موسىٰ..**» ووفق الروايات المتداولة في هذا المجال فإنه كان من عباد القوم ونسّاكهم، وكان عارفاً بكل تعاليم موسىٰ(عليه السلام) غير أن افتقاده لعنصر التقوىٰ أدىٰ به إلى أن يبغي على قومه:

﴿إن قارون كان من قوم موسىٰ فبغىٰ عليهم﴾[1].

وبالتالي ليتحول إلى عنصر خطر يهدد الأمة، وقد بلغ به الأمر درجة أنه أراد أن يقتل نفس النبي موسى(ع). والمفارقة التي من المناسب الإشارة إليها هنا هو أن بغيه بلغ حداً جعله لا يؤمن بنفس الأفكار والمعتقدات التي كان يعتقد بها من قبل، وهو الأمر الذي تشير إليه الآية الكريمة:

﴿ولقد أرسلنا موسىٰ بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب﴾[2].

غير أن هذه الصعوبة التي تقف دون إيجاد الإنسجام ما بين الفكر الديني والسلوك الإنساني، من الممكن تذليلها من خلال توفر عنصر التقوىٰ، وهو الذي يسعىٰ دوماً إلى التوفيق ما بين أفكار الإنسان الدينية الفطرية والتشريعية، وما

---

(١) سورة القصص، ٢٨: ٧٦.

(٢) سورة غافر، ٤٠: ٢٣ ـ ٢٤.

بين مسار إرادته واتجاهها. وبالتالي يضمن لبناء الأمة مصونية خاصة من الإنحراف والزلل.

ولعل ما في هذا الأمر ما يكفي لتبيان أحد أهم الأسباب التي تجعل عنصر التقوىٰ مصاحباً لجميع مراتب الإيمان وليس مرتبة من مراتبه. حيث أنه حالة وملكة مطلوبة دائماً في كل هذه المراتب، تدنت هذه المراتب أو تسامت.

ومن كل ذلك يمكننا أن نلحظ موقعية هذا العنصر الأساسية في القاعدة الأم التي يقوم عليها البناء الاجتماعي للأمة. ومما لا شك فيه، أن أحد الأسباب الرئيسية، التي تجعل الطواغيت في حرب دائمة مع الالتزام الديني وعناصر التقوىٰ هو تشخيصهم الدقيق موقعية التقوىٰ في كيان الأمة تلك الموقعية التي متىٰ ما سلبت أمكن هدم هذا الكيان، أو تحويله إلى شبح كيان. شبح أمة. وهو أمر من شأن الحريصين على عزّة الأمة الإسلامية وعلو شأوها ومجدها وخلاصها من براثن السيطرة الطاغوتية أن يتأملوا فيه بشكل جدي من أجل اتخاذ التدابير اللازمة للحيلولة دون نجاح المآرب الاستكبارية على المستويين الفردي والاجتماعي.

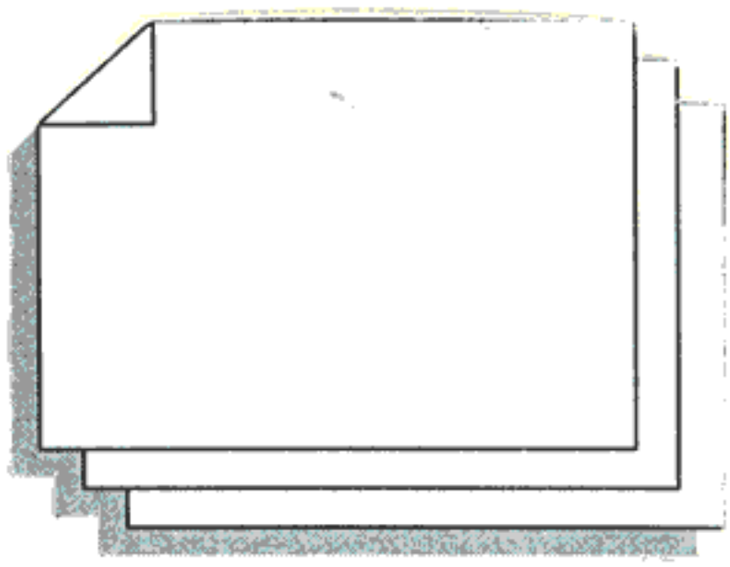

التقوى
ودورها في المسيرة الاجتماعية

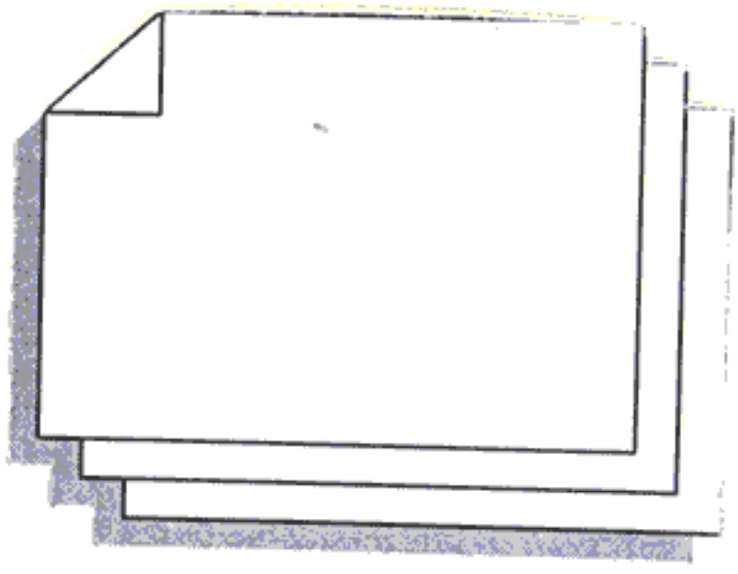

في المبحث السابق شخصنا موقع التقوى في البناء الاجتماعي ودورها في المحافظة عليه. وجاء الدور الآن لنتعرف على طبيعة الدور الذي تلعبه التقوى في الحركة الاجتماعية. وأثرها في تقوية وترشيد هذه الحركة ودفعها نحو الإمام، ومنعها من التراجع أو التباطىء في المسير. ولا بد لنا في البداية أن نتعرف على الكيفية التي تتم بها الحركة الاجتماعية من أجل أن يسهل علينا أمر البحث.

عن هذه الكيفية يشير السيد الشهيد الصدر ـ رض ـ إلى أن الحركة الاجتماعية:

«حركة هادفة لها علة غائية متطلعة إلى المستقبل، فالمستقبل هو المحرك لأي نشاط من النشاطات التأريخية، غير أن المستقبل معدوم فعلاً، وإنما يحرك من خلال الوجود الذهني الذي يتمثل فيه هذا المستقبل.

إذن الوجود الذهني هو الحافز والمحرك والمدار لحركة التأريخ وهذا الوجود الذهني يجسد من ناحية جانباً فكرياً، وهو الجانب الذي يضم تصورات الهدف. وأيضاً يمثل من جانب آخر الطاقة والإرادة التي تحفز الإنسان نحو هذا الهدف وتنشطه للتحرك نحوه، أو ما يعني أن الوجود الذهني يعبر بجانب منه عن الفكر، وبجانب آخر منه عن الإرادة، وبالامتزاج بين الفكر والإرادة تتحقق فاعلية المستقبل، ومحركيته للنشاط التأريخي على الساحة الاجتماعية»[1].

إن الفكر يتولى عملية تشخيص هدف هذه الحركة، ولكن المسؤولية الأكبر تقع على الإرادة، وهي تحمل أعباء المسيرة نحو الهدف بكل ما يترتب على ذلك من التزامات، وهي ما تعني تخطي جميع عوامل الإغراء بالإنحراف عن الطريق المؤدي نحو الهدف، أو التراجع عنه أو التباطؤ في المسير إليه، أو عوامل الإحباط أو العوامل المضادة التي تعرقل المسير. وهذه العوامل والمشاكل عانت منها جميع المناهج الحضارية، وظلت مشكلتها متمثلة في كيفية النجاح في تخطي هذه العقبات. ومما لا شك فيه أن المسيرة الإيمانية قد عانت من ذلك أشد

---

(١) انظر المدرسة القرآنية ص١٣٩ ـ ١٤٠ للإمام الشهيد الصدر ـ رض ـ بتصرف ضئيل.

المعاناة لأنها أكثر من غيرها معنية في ملاحقة الأهداف الكبرى الاستراتيجية مما يجعل مسيرتها أطول وهو ما يقتضي معاناة أكبر من هذه المشاكل.

فهناك مشكلة إبقاء زخم الحركة الاجتماعية فعّالاً، لا يسير نحو النضوب بشكل من شأنه أن يؤدي لاستمرار تقدم هذه الحركة، ويحول دون نكوصها عنه. ومما لا شك فيه أن طبيعة الهدف الذي تنتخبه هذه الحركة يلعب دوراً مهماً في إيجاد هذه المشكلة أو عدمها. وذلك لأن الهدف له موقعية إشعاع خاصة بالنسبة للمتحركين نحوه، ولكن هذه الموقعية من الإشعاع تتفاوت من هدف لآخر. فهناك الأهداف التي لها قدرة أكبر على شحذ الطاقة الحركية في جمهور الحركة الاجتماعية وهناك العكس. وهكذا تلعب الأهداف دوراً مهماً في هذه المشكلة، سلباً أو إيجاباً، وفقاً لطبيعة الهدف المنتخب. فانتخاب الوطنية كهدف ـ مثلاً ـ له أثر في إيجاد هذه المشكلة أكثر من انتخاب القومية التي تضم مجموعة من الأوطان، وهذه بدورها تساهم بشكل أكبر في إيجاد هذه المشكلة مما لو انتخبت الإنسانية كهدف، وهكذا.

غير أن المشكلة لا تنحصر جميع أطرافها بطبيعة الهدف، وإنما تمتد إلى المدىٰ الذي تكون فيه طاقة الحركة الجماهيرية فاعلة. فالهدف قد يكون متمتعاً بقدرة

مناسبة على الإشعاع لإثارة هذه الطاقة. ولكن الجماعة التي تتحرك غير قابلة للتأثر به، أو أنها عديمة الإحساس بعملية الإثارة هذه أو أنها لا تقوىٰ على تحقيقه؛ نظراً لإمكانياتها المادية المحدودة. حينذاك فإن التقصير في عدم تحقق هذا الهدف لا يعود إلى نفس الهدف، وإنما يعود للمجموعة الاجتماعية ذاتها.

وقد حاول البعض ومن خلال إثارة الشعور القومي، أو الإقليمي، أو الأممي أو شيء أكبر من ذلك، أو أصغر، في وسط المجتمع الذي يعمل ضمن إطاره أن يعالج هذا الخلل. غير أن الواقع التأريخي وكذلك الحساب المنطقي لهذه الأمور أثبت أن هذا العلاج لم يكن إلا علاجاً وقتياً سرعان ما انتهىٰ.

ولكن هذا الواقع نفسه أثبت أن الدين وحده هو القادر على معالجة هذه المشكلة بشكل موضوعي. فهو من جهة يرتبط بهدف لا نفاد لاشعاعه:

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً..﴾[1].

﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلامٌ والبحر يَمُدُّه من بعده سبعةُ أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز

---

(١) سورة الكهف، ١٨: ١٠٩.

حكيم﴾[1].

ومن جهة أخرىٰ بيده عامل التقوىٰ الذي نلحظ فيه أنه يلعب دور الجذب والدفع في آن واحد وسط الحركة الجماهيرية. فمن خلال تعميقه للإحساس بالمسؤولية تجاه هذه الحركة وسط الأفراد ـ يبقي هذه الحركة في مسار مستقيم دائم رغم كل مصاعب التحرك والمسير:

﴿ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتىٰ المال على حبه ذوي القربىٰ واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتىٰ الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون..﴾[2].

فيما يلعب دور الردع، مع كل من يحاول التخلف، أو الإنحراف، أو يصاب بوهن، لأي سبب كان. لأن نتيجة التخلف أو الإنحراف لن تتعدى الدمار للمجتمع:

﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً * فذاقت وبال أمرها

---

(١) سورة لقمان، ٣١: ٢٧.

(٢) سورة البقرة، ٢: ١٧٧.

وكان عاقبة أمرها خسراً * أعد الله لهم عذاباً شديداً. فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً..﴾[1].

هذا على مستوى الحياة الدنيا العاجلة. أما في الحياة الآخرة فإن من يتخلف أو ينحرف أو ما شاكل فإنما يتخلف أو ينحرف عن الله سبحانه وتعالى وثوابه، ليلتقي بعذابه وما ينطوي عليه المستقبل القاتم.

وهناك مشكلة التورّم الذي تصاب به الحركة الاجتماعية، أو حالة الانتفاخ التي تجعل الواقع الخارجي لهذه الحركة غير متناسب مع الواقع الداخلي لها، بصورة يمكن معها أن تعرض المسيرة إلى خطر السقوط أو الإنهيار في حالة مواجهتها لعقبات تنسجم مع مسار الواقع الخارجي المتضخم، فيما لا يقوى على دفعها الواقع الداخلي الضعيف. وهو أمر حدث كثيراً عبر التاريخ لحركات اجتماعية كان واقعها الخارجي أكبر من واقعها الذاتي ولكنها سرعان ما انهارت حينما جوبهت ببعض العوامل المضادة. وغدت في عداد الحركات المندثرة. غير أن هذه المشكلة لا وجود لها في الحركة الاجتماعية المتقية. إذ أن عنصر التقوىٰ هنا يلعب دور الموازنة والتوفيق ما بين الواقعين. فلا يدع الواقع الذاتي ضخماً في قبال ضآلة في

---

(١) سورة الطلاق، ٦٥: ٨ ـ ١٠.

الـواقع الخـارجي. كما لـو أن حركـة إسلاميـة عملت على تكوين قاعدة اجتماعية ضخمة إلا أنها اكتفت بتـوسعة هـذه القـاعدة دون أن تعمـل على توسعـة الـواقـع الخـارجي من خـلال مبارزة الـطاغوت ـ مثـلاً ـ. فالتقـوىٰ هنـا تلعب دور المحرك باتجاه المبارزة المتناسبة مع حقيقة الواقع الذاتي.

كمـا أن التقوىٰ لا تـدع الواقـع الخارجي يتضخم في قبال ضعف في الواقع الذاتي، ومن شـأن ذلك أن يـدلنا على الأسبـاب التي جعلت الرسـول القائـد(ص) يعـطي لعمليـة القتـال والجهاد في سبيـل الله صفة الجهـاد الأصغـر، فيمـا يخص صفة الجهاد الأكبر لعملية تكريس التقوىٰ في النفس الإنسانية. فـالرسـول(ص) حينما تـرجع إحدىٰ سرايـا جيشه يستقبلهم بقوله. «**مـرحباً بقـوم قضوا الجهـاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر**».

فقيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟

قال: جهاد النفس...»[1].

وهــذا الإمـام أميــر المؤمنين علي(ع) يسمي جهــاد النفس بأنه أفضل أنواع الجهاد:

«**إن أفضــل الجهــاد، من جــاهــد نفســه التي بين جنبيه..**»[2].

---

(١) وسائل الشيعة ٦: ١٢٢، ١٢٤ للحر العاملي ـ رض ـ.

(٢) ن. م ٦: ١٢٤.

فيما نجد الإمام الصادق(ع) يصفه بأنه أعظم صفات الجهاد: «**الجهاد على أربعة وجوه، فجهادان فرض، وجهاد سنة لا تقام إلا مع الفرض، وجهاد سنة، فأما أحد الفرضين، فمجاهدة الرجل نفسه عن معاصي الله عز وجل وهو من أعظم الجهاد..**»[1].

وجهاد النفس هو تمرينها على التقوى وتركها طيّعة لأمر التقوى. وهنا لا ينبغي التوهم بأن القول بأن جهاد النفس ما دام أنه أعظم الجهاد فلا سبيل للقول بأن التقوىٰ تلعب دور الموازنة ما بين الواقع الخارجي والواقع الذاتي للحركة الاجتماعية لأن قاعدة الترتب تقتضي دائماً بتقديم الأهم على المهم. والجهاد في الساحة الخارجية لحركة الاجماعية يغدو مهماً بعد إنجاز الأهم وهو الجهاد في الساحة الذاتية. ومع عدم الإنكار بتقديم الأهم على المهم. إلا أنه ينبغي ملاحظة حقيقة إن ترك الساحة الخارجية من حالة الجهاد الأصغر سيوفر الفرصة للتحرك المضاد «الاستكبار أو الطاغوت» للعمل على غزو الساحة الداخلية فضلاً عن الهيمنة على الساحة الخارجية مما يعرض الجميع إلى الخطر. غير أن الجهاد الأصغر يوفر الأجواء الآمنة والملائمة لتحقيق وتنمية الجهاد الأكبر. وفي الآيات القرآنية التالية إشارات إلى ذلك:

---

(١) ن. م ٦: ١٦.

﴿ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وآتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون * وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين * واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتىٰ يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين * الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين..﴾[1].

وهناك مشكلة أخرىٰ ترتبط بطبيعة النوازع والدوافع التي تحرك المرء وسط الحركة الاجتماعية ومدىٰ انسجام هذه الدوافع مع أهداف هذا التحرك أو ذاك.

وهي مشكلة جرّت الويلات على الحركات الاجتماعية المعاصرة والماضية، وخلفت وراءها أسوء آثار استغلال الإنسان لأخيه الإنسان. ولم تنفع معها كافة الوسائل الانضباطية، التي قد تتخذ شكل العادات والأعراف

---

(١) سورة البقرة، ٢: ١٨٩ ـ ١٩٤.

والأخلاق الاجتماعية، وقد تتخذ شكل الإجراءات الانضباطية الرادعة التي تشرعها هذه الجماعة أو تلك لنفسها، لقمع حالات الاستغلال، أو سوء الاستفادة، أو ما شاكل من أمراض. فهذه الوسائل على الرغم من أن: «**لها دور كبير في السيطرة على سلوك الأفراد وضبطه. فإنها لا تكفي في أحايين كثيرة بمفردها ما لم يكن إلى جانبها ضمان ذاتي ينبثق عن الشعور الداخلي للإنسان بالمسؤولية. لأن الرقابة الموضوعية للفرد مهما كانت دقيقة وشاملة لا يمكن عادة أن تضمن الإحاطة بكل شيء واستيعاب كل واقعة**. .»[1].

هو أمر لا نقاش فيه، ومن أبسط الأدلة عليه هو احتدام الجدال ما بين الفلاسفة الوضعيين، حول أفضل الصيغ الكفيلة بقمع الإجرام والجنايات الاجتماعية وتعدد الصيغ المطروحة لذلك وفشلها جميعاً في الحد من ذلك. ويقابله تصاعد أرقام الجرائم بكافة أنواعها بشكل مذهل ومريع في أوروبا وأمريكا على الرغم من ضخامة الإجراءات الانضباطية والردعية على المستويين البشري والتكنولوجي.

ويبقىٰ الحل مرهوناً بوجود رقابة دائمية على جميع

---

(١) انظر الفتاوى الواضحة ١ : ٧١٨ فصل «نظرة عامة في العبادات» للسيد الشهيد الصدر (الطبعة السادسة).

مفـردات هذه الحـركة وهـذه الرقـابة هي التي يسعىٰ عـامل التقوىٰ لإيجادها، من خلال تقويته لعلاقة الفرد مع البـارىء عز وجل وإشعاره الدائم بأن رقابة الله رقابـة دائمية لا يغيب عنها أي شيء مهما صغر أو كبر. فـالله سبحانـه وتعالى هـو عالم الغيب الذي:

﴿لا يعـزب عنـه مثقـال ذرة في السمـوات ولا في الأرض ولا أصغـر من ذلك ولا أكبـر، إلا في كتاب مبين * ليجـزي الذين آمنـوا وعملوا الصالحـات أولئك لهم مغفـرة ورزق كريم * والذين سعوا في آياتنا معاجـزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم..﴾[1].

وهنا يكون للتقوىٰ دور المنبِّه على هذه الرقابة، ودور المذكِّر بهذا الثواب أو بذلك العذاب:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله عليم خبير..﴾[2].

﴿واتقوا الله واعلموا إن الله بكل شيء عليم..﴾[3].

﴿واتقوا الله واعلموا إن الله بما تعملون بصير..﴾[4].

* * *

(١) سورة سبأ، ٣٤: ٣ ـ ٥.

(٢) سورة الحشر، ٥٩: ١٨.

(٣) سورة البقرة، ٢: ٢٣١.

(٤) سورة البقرة، ٢: ٢٣٣.

وثمة مشكلة أخرىٰ نجدها متمثلة بواقع الذين يتهربون من المشاركة في أعباء ومستلزمات التحرك الاجتماعي. وهنا نرجع إلى الإشارة إلى أن الضوابط الاجتماعية لا تنفع وحدها في التصدي لمعالجة هذه المشكلة. وبالتالي فإن المجتمع يبقىٰ محروماً من جهود كان ينبغي أن تصب في خدمة حركته. ومن البديهي أن الذي يهرب من تحمل أعباء الحركة الاجتماعية؛ فإنه في نفس الوقت يكون قد ترك المجال مفتوحاً للعوامل المضادة، لأن تحتل المكان الذي خلا نتيجة لهروبه وعزلته عن الساحة الاجتماعية. وهذا ما يعني أن السماح بوجود هذه الثلة وسط الحركة الاجتماعية إنما هو تسامح في الواقع مع مسألة انتحار وتلاشي هذه الحركة.

وهنا تلعب التقوىٰ مرة أخرى دور العلاج، من خلال تنقيتها وتوجيهها للشعور الداخلي للإنسان، بتحمل المسؤولية وعدم الفرار من مشكلاتها مهما بدت صعبة. وفي وصف الإمام علي أمير المؤمنين(ع) للمتقين نلحظ إشارات رائعة للعلاج الذي تقدمه التقوى لهذه المشكلة فالمتقي حاضر في ساحة العمل:

«الخير منه مأمول، والشر منه مأمون.. يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيداً فحشه، ليناً قوله، غائباً منكره، حاضراً معروفه، مقبلاً خيره، مدبراً

شره، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرضاء شكور... ولا يشمت بالمصائب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق... وإن بُغي عليه صبر حتىٰ يكون الله هو الذي ينتقم له..»[1].

وذلك لأنه بتحمله لمصاعب اليوم ـ هكذا تعلمه التقوى ـ فإنه إنما يضاعف في الواقع من اطمئنانه على مستقبله في الغد:

﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتىٰ إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فأدخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنةِ حيث نشاء فنعم أجر العاملين..﴾[2].

هذا على مستوى الحياة الأخرى، أما الحياة الدنيا فإن الصبر وتحمل المصاعب كل ذلك مدعاة لتنزل الإمداد الإلهي:

﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين..﴾[3].

---

(١) نهج البلاغة، خطبة المتقين ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٢) سورة الزمر، ٣٩: ٧٣ ـ ٧٤.

(٣) سورة آل عمران، ٣: ١٢٥.

غير أن عدم التحمل إنما يعني حقيقة واحدة؛ هي الدمار على الصعيد الاجتماعى، والبوار على الصعيد الفردي:

﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً..﴾[1].

إن عملية التوجيه والتنقية للشعور الداخلي، في تحمل مسؤولية المجتمع وحركته لدى الفرد، والتي تساهم فيها التقوىٰ مساهمة أساسية وجوهرية؛ تولد للحركة الاجتماعية قاعدة صلبة لا يمكن للعواصف أن تقتلعها، وللهزات أن تهدّها. وهو عنصر أساسي من عناصر الحركة الناجحة لأنها تولد وفق ما يسميه السيد الشهيد الصدر ـ رض ـ حالة المواطنة الصالحة، والتي يقول عنها:

«لا يكفي في المواطنة الصالحة أن لا يتخلف الإنسان عن أداء حقوق الآخرين المشروعة، خوفاً من رد الفعل الاجتماعي على هذا التخلف، وإنما تتحقق المواطنة الصالحة بأن لا يتخلف الإنسان عن ذلك بدافع من الشعور الداخلي بالمسؤولية؛ وذلك لأن الخوف من رد الفعل الاجتماعي على التخلف لو كان وحده هو الأساس لالتزامات المواطنة الصالحة في المجتمع الصالح لأمكن التهرب من تلك الواجبات في حالات كثيرة. حينما يكون

---

(١) سورة الإسراء، ١٧: ١٨ ـ ١٩.

بإمكان الفرد أن يخفي تخلفه، أو يفسره تفسيراً كاذباً. أو يحمي نفسه من رد الفعل الاجتماعي بشكل وآخر فلا يوجد في هذه الحالات ضمان سوى الشعور الداخلي بالمسؤولية..»[1].

* * *

ويوفر عامل التقوىٰ ميزة أخرىٰ للحركة الاجتماعية لا تتوافر في الحركات التي لا تلتزم به. وهي ميزة الدور الذي يلعبه في مجال تحفيز أفراد الحركة الاجتماعية دوماً إلى بذل كل ما يمكنهم بذله من طاقات وجهود في سبيل خدمة هذه الحركة وتقدمها. وفي وصفه للمتقين يقول الإمام أمير المؤمنين علي(ع) متحدثاً عن ذلك:

﴿ولقد خالطهم أمر عظيم. لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير. فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون(*)﴾[2].

فالتقوىٰ من خلال الترغيب بمزيد الثواب الإلهي. تعمل على تعميق الاهتمام بمصلحة الحركة الاجتماعية، وتفضيلها على الواقع الفردي، وهي بهذا لا تدع مجالاً أمام

---

(١) انظر الفتاوى الواضحة، ١: ٧١٩ ـ ٧٢٠.

(*) مشفقون: خائفون من التقصير.

(٢) نهج البلاغة، خ ١٩٣: ٣٠٤.

أفراد هذه الحركة في أن لا يبذلوا، أو أن يتقاعسوا عن بذل المزيد، مهما كان شكل البذل والعطاء.

ومثل هذا الدور في التحفيز قلما نلحظه متوافراً على المستوى الكمي في الحركات الأخرىٰ. غير أنه من الواضح أنه لا يوجد بشكل مطلق إذا ما لحظنا الأمر على المستوى النوعي بعيد المدىٰ.

إن هذه الميزة تجعل الإنسان قادراً على التحرر من: «**مغريات الأرض، ويرتفع عن الهموم الصغيرة الي تفصله عن الله، ويعيش من أجل الهموم الكبيرة، وبذلك يواجه أعظم مسؤوليات البناء بصدر رحب، وقلب مطمئن، ونفس قوية ومعادلة حسابية رابحة، لا موضع فيها للخسارة بأي حال من الأحوال..**»[1].

وقد قال البارىء عز وجل في معرض حديثه عن ذلك:

﴿**يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون...**﴾[2].

---

(١) منابع القدرة في الدولة الإسلامية ص١٨ للسيد الشهيد الصدر (قدس).

(٢) سورة الصف، ٦١: ١٠ ـ ١١.

إن الذي لا يبذل في سبيل الأمة جهده وعطاءه، وينكفىء إلى الاهتمام بالهموم الصغيرة الذاتية، إنما يعتمد حسابات قصيرة الأمد لا ترعىٰ واقعيات المستقبل، ولا تأخذ بعين الاعتبار ما ينطوي عليه حساب الغدّ. بيد أن التقوىٰ من خلال محاربتها لهذا النمط من الاهتمام عبر تذكيرها الدائم بوجود مراقبة عسيرة، وعبر تنبيهها الدائم إلى حقيقة أن هناك حساب صارم في الغد يعتمد على نتائج عمل اليوم، وهذا الحساب له أثاره الواقعية في الدنيا وله آثاره العادلة في الحياة الآخرة. من خلال كل ذلك تعمل التقوىٰ في الواقع على قطع الطريق على الإنسان من أن ينكفىء إلى همومه الصغيرة المبنية على أساس المصالح الذاتية قصيرة الآمد. لأنها تعلّمه أن هذه الهموم ليست هي الربح، بل أن الربح كل الربح يتحقق من خلال طاعة البارىء عز وجل المتمثلة بالانتهاء عن محارمه، والعمل بواجباته، والتي تتجسد في الحياة الدنيا في حمل الهموم الكبيرة، وتحمل كامل مستلزمات المسؤولية والآيات القرآنية التالية تعرض هذه الحالة بشكل رائع:

﴿زيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب * قل أؤُنبئُكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرّة

ورضوان من الله، والله بصير بالعباد ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار * الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار..﴾[1].

* * *

لقد لمسنا دور التقوىٰ على صعيدي الحركة الاجتماعية، والانضباط الاجتماعي، وبقي علينا أن نشير إلى الدور الذي تلعبه على صعيد التماسك والتراص الاجتماعي. إذ تعتبر عملية المحافظة على الوحدة الاجتماعية، واحدة من أهم المسائل التي أولتها الحركات الاجتماعية أهمية بالغة. وقد اجتهدت هذه الحركات ـ عبر التاريخ ـ في اختراع واكتشاف السبل والوسائل التي تمكنها من حفظ التماسك الاجتماعي. إلا أنها غالباً ما كانت تصطدم بعقبات في هذا المجال هي التي أدت بالتالي إلى القضاء على الوحدة الاجتماعية ومن ثم أدت إلى اندثار أمم، وتحلّل أخرىٰ.

ورغم التراث الضخم الذي تمتلكه البشرية في هذا المجال؛ غير أننا لا نعثر في الواقع على وسيلة أفضل من التقوى، كي تلعب الدور الحساس والحاسم في عملية حفظ التماسك الاجتماعي، وصيانة الوحدة الاجتماعية من

---

(١) سورة آل عمران، ٣: ١٤ ـ ١٧.

التحلل والتنافر ووفقاً للآيات القرآنية فقد أشار البارىء عز وجل إلى أن أحد الأسباب الرئيسية التي تساهم في تمزيق الوحدة الاجتماعية هي حالة عدم الالتزام بالتقوى كما نلاحظ ذلك في قوله تعالى:

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون..﴾[1].

فالتقوىٰ تقيم إنسانها على أساس عقائدي محكم، ينظر إلى أخيه الإنسان نظرة واقعية وموضوعية، فتجبره على أن يقيّم علاقاته مع أخيه الإنسان على أساس موضوعي، خال من أي نظرة استعلائية متكبرة، تؤمن بوجود حق لها باستغلال الآخرين. فالجميع خلقوا من نفس واحدة، بواسطه إله واحد، ومن ثم فليس هناك أي مبرر لوجود حالات الاستغلال التي بدورها تخلق المجتمع المتشكل من طبقات اجتماعية يتسم بعضها بالعلو وبعضها الآخر بالوضاعة. لتدق بذلك إسفين الصراع، ومن ثم الانحلال الاجتماعي. وهذا الأساس العقائدي تطرحه الآية القرآنية بهذه الصورة:

---

(١) سورة الروم، ٣٠: ٣٠ ـ ٣٢.

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث فيها رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً. .﴾[1].

وتعزيزاً لهذه الحالة يطرح القرآن الكريم التقوىٰ كأساس للتفاضل بين البشر بعيداً عن روح الاستغلال والهيمنة والسيطرة. وبذلك يظهر دور التقوىٰ في تحصين الوضع الداخلي للأمة من خلال القضاء على جميع عوامل التفاضل والتمايز الزائفة. والتي يرجع إليها ـ غالباً ـ تحلل الأمم وتعدد الطبقية الاجتماعية ومن ثم تنافرها.

ومن خلال القضاء وأيضاً على جميع ما يترتب على وجود تلك العوامل من أمور أخلاقية وحقوقية لها أثرها المهم في إشاعة التحلل الاجتماعي سواء على مستوى العلاقات الاجتماعية حيث تقضي على العلاقات القائمة على أساس الإثم والعدوان لِتُحِّلَّ محلها العلاقات القائمة على البر والخير والعدل:

﴿وتعاونوا على البر والتقوىٰ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب. .﴾[2].

---

(١) سورة النساء، ٤: ١.

(٢) سورة المائدة، ٥: ٢.

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنّكم شنآن قومٍ على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوىٰ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون..﴾[1].

أو على مستوى المشاعر والأحاسيس الفردية كمشاعر الحسد والبغض وحب التسلط والسيطرة وما إلى ذلك. وبذلك لا يغدو المال ولا الجاه ولا اللون ولا العنصر ولا الشعب أو أي شيء من هذا القبيل مبرراً للتفاضل والتمايز بين البشر، ومبرراً للهيمنة على الآخرين، وإنما تبقىٰ القيمة الوحيدة التي يقاس فيها التفاضل هي قيمة التقوىٰ:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير..﴾[2].

وهذا العامل لا ينطوي على أي شكل من الأشكال التي قد تسهم بإيجاد طبقية اجتماعية، كطبقة الأولياء أو ما شاكل. وذلك لأن حالة التقوىٰ هذه، إنما هي حالة معنوية، وهي علاقة غير محسوسة، ما بين الفرد وربه، وليست هي علاقة ما بين الفرد والمجتمع. رغم أنها تحدد وتنظم علاقة الفرد مع المجتمع والعكس صحيح أيضاً. ونظراً لكونها

---

(١) سورة المائدة، ٥: ٨.

(٢) سورة الحجرات، ٤٩: ١٣.

حالة معنوية فأنها لا ترتب أي أثر على ذلك. على أن حالة التفاضل هذه هي من اختصاص البارىء عز وجل، فهو الذي يحاسب على ضوئها، وهو الذي يشخص وجودها أو عدم وجودها، وهو الذي يقيم عمق وجودها قلة أو كثرة. ولربما تلافياً لهذه الحالة منع الإسلام أفراده من تزكية أنفسهم كما أشار الآية الكريمة:

﴿**فلا تزكوا أنفسكم، هو أعلم بمن اتقىٰ..**﴾[1].

على أن الإنسان كلما قطع شوطاً أكبر في مضمار التقوىٰ كلما ازداد حرصه على حفظ الوحدة الاجتماعية لأنه:

أولاً: مكلف بإقامة الأمة الواحدة. ومن الواضح أن الإنسان كلما ازدادت تقواه كلما كان أشد حرصاً على تنفيذ التكليف الشرعي. ذلك التكليف الذي تشير إليه الآية الكريمة:

﴿**وإن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون..**﴾[2].

ثانياً: كما أشارت الآيات الكريمة السابقة فإن حالة التشتت والتحلل الاجتماعي إنما تبرز نتيجة لأسباب كانت

---

(١) سورة النجم، ٥٣: ٣٢.

(٢) سورة المؤمنون، ٢٢: ٥٢.

التقوىٰ من جملة أهمها، والإنسان المتقي يعي هذه الحقيقة في مستوييها التشريعي والتكويني. فعلى المستوىٰ التشريعي لا يقترب الإنسان المتقي من الأعمال والتصرفات التي تبث الفرقة في المجتمع. وعلى المستوى التكويني فإن أعمال المتقي بمجموعها لو لوحظت، لوجدنا محصلتها تؤدي إلى تحقيق التماسك في المجتمع[١] والمحافظة على وحدته.

ثالثاً: إن الإنسان المتقي حتىٰ لو لم يكن مكلَّفاً بذلك ـ وفرض المحال ليس بمحال ـ فإن تقواه تجعله ينظر إلى جميع الناس نظرة عادلة تقوم على أساس مشاعر الأخوة لأن الناس: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق كما ورد عن إمام المتقين أمير المؤمنين علي(ع). وتتأكد هذه الحالة في داخل المجتمع الصالح ما بين المؤمنين أنفسهم وفقاً لمضمون الآية الكريمة:

﴿إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون..﴾[٢].

ومن شأن كل ذلك أن يعالج هذه الحالة خصوصاً إذا ما لاحظنا أن الأعمال التي يوليها الإمام أمير المؤمنين

---

(١) المقصود هنا المجتمع الصالح. وليس أي مجتمع. وإلا فأن هدم المجتمع الصالح والعمل على القضاء عليه هو من جملة مهام المتقين.

(٢) سورة الحجرات، ٤٩ : ١٠.

علي(ع) للمتقين في إطار علاقتهم بالمجتمع كلها تنسجم مع الحرص على عميق أواصر التماسك الاجتماعي إذ يقول (ع) في خطبة المتقين:

«تراه قريباً أمله، قليلاً زلله، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، منزوراً(*) أكله، سهلاً أمره، حريزاً(* *) دينه، ميتة شهوته، مكظوماً غيظه، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون. إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، وإن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين. يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيداً فحشه، لينا قوله، غائباً منكره، حاضراً معروفه، مقبلاً خيره، مدبراً شره، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرضاء شكور. لا يحيف على من يبغض ولا يأثم فيمن يحب. يعترف بالحق قبل أن يُشهَدَ عليه، لا يُضيع ما أستحفظ، ولا ينسى ما ذُكِّر، ولا ينابز بالألقاب، ولا يُضارُّ بالجار، ولا يشمت بالمصائب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق. إن صمت لم يغُمُّهُ صمته، وإن ضحك لم يعل صوته، وإن بُغي عليه صبر حتىٰ يكون الله هو الذي ينتقم له. نفسه منه في عناء، الناس منه في راحة. أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه. بُعده عمن باعد عنه زهد

(*) منزوراً: قليلاً.

(**) حريزاً: حصيناً.

ونزاهة، ودُنوَّه ممن دنا منه لين ورحمة. ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوه بمكر وخديعة..»[1].

* * *

يبقىٰ علينا أن نشير إلى أن ما ذكرناه عن دور التقوى وموقعيتها في المسيرة الاجتماعية، لم يكن على سبيل الحصر والاستقصاء لكل ما يتعلق بذلك، وإنما جاء كاستعراض لما يمكن للتقوىٰ أن تحققه في وسط الحركة والمسيرة الاجتماعية. وتسليط للضوء على بعض الأسباب التي تجعل الإسلام يعير كل هذه الأهعمية المشار إليها في القرآن والحديث الشريف للتقوىٰ، ومسألة تحكمها في سلوكية الفرد المسلم. لأن توافرها يعني توافر القاعدة الصلبة التي يتمكن الإسلام من الاتكاء عليها في مهامه الكبرى، تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى، وسعياً وراء تحكيم العبودية له في جميع أفياء المعمورة، وإلغاء كافة العبوديات لغيره.

---

(١) نهج البلاغة خ ١٩٣: ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

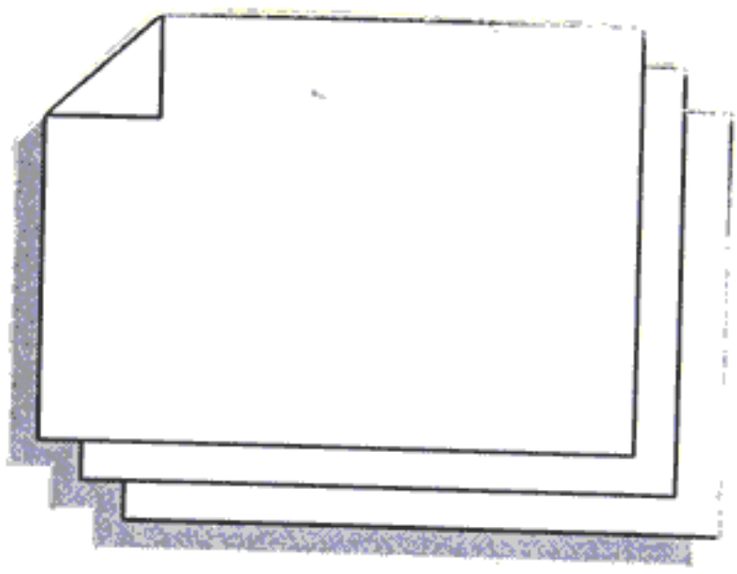

مع المتّقين

في صِفاتهم وخصَائِصهم

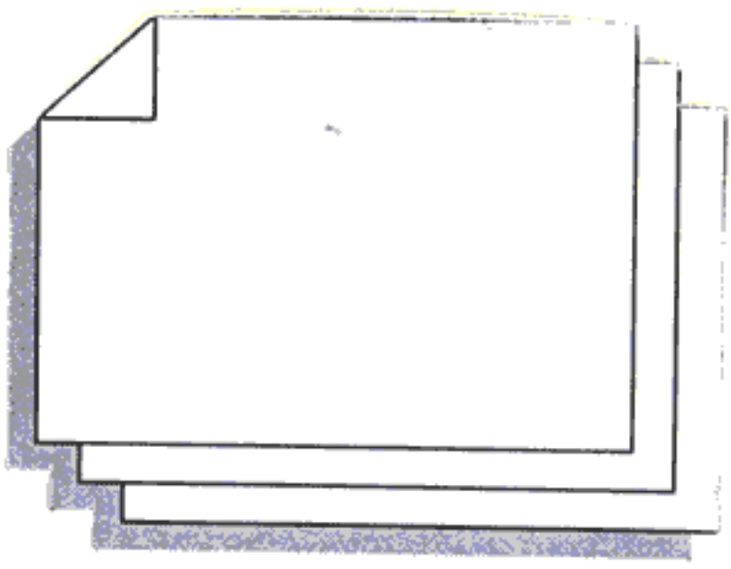

ألمعنا فيما سبق وبشكل سريع إلى بعض من صفات وخصوصيات المتقين، وقد وجدت أن الحاجة تستدعي توقفاً أكثر عند هذه الصفات والخصوصيات لأن ذلك يساعدنا من جهة على امتلاك فهم أكبر عن مفهوم التقوىٰ. والأهم من ذلك أنه يوفر لنا برنامج عمل في السير إلى الله وعلى هداه، والذي يعني تحقيق مجد وعزة وكرامة أمتنا الإسلامية، ودفع الاستضعاف عن جميع المستضعفين، وجعلهم أئمة يسودون العالم من خلال قمع جميع أشكال الجبت والطاغوت، واكتساح قوى الاستكبار العالمي.

وهذه الصفات والخصائص يمكن الإشارة إليها عبر المحاور التالية:

أولاً: مبررات التقوى

إن المتقين إذ يلتزمون بالتقوى فلمبررين:

أحدهما: مبرر فكري يتمثل في كونهم صنيعة خالق، أوجدهم من عدم، وأفاض عليهم كل سابغات النعم، وسخّر تحت أقدامهم وما بين أيديهم كل ما في الوجود وشرّفهم على جميع خلقه، ولم يتركهم سدى من دون توجيه وإرشاد. فأرسل إليهم الأنبياء والرسل يعرفونهم طريق الهدى والرشاد. ثم حذرهم من مساوىء طريق الضلال وما فيه من الردى والهلاك. وأشعرهم بوحدانيته في الوجود. إذ لا إله غيره، ولا شريك له ولا نظير. وأظهر لهم قدرته وعظمته، وهذا كله يستدعي تعلق واجب الشكر في أعناق الناس له، من خلال طاعته في كل شيء، والتورع عن الوقوع في معاصيه:

﴿يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذي خلقكم، والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً، والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون...﴾[1].

﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمرَ نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون * إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض، لآيات لقوم يتقون..﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، ٢: ٢١ ـ ٢٢.
(٢) سورة يونس، ١٠: ٥ ـ ٦.

﴿قل: من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبّر الأمر؟ فسيقولون: الله، فقل: أفلا تتقون؟﴾[1].

ثم أعلمهم بأن الحياة التي يحيون فيها ليس لها دوام بل هي إلى زوال، وأن من واجبهم الإعداد للحياة الأخرى التي تتميز بالخلود والدوام. وأشعرهم بأن سبيلهم إلى تلك الحياة وملذاتها هو التقوى:

﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين * قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * هذا بيان للناس وهدىً وموعظة للمتقين..﴾[2].

---

(١) سورة يونس، ١٠: ٣١.

(٢) سورة آل عمران، ٣: ١٣٣ ـ ١٣٨.

وقوله تعالى: ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم، قالوا خيراً، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين * جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين * الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون..﴾[1].

وذلك لأن تلك الحياة يتوقف شكلها على أعمال الدنيا. فإن أحسنوا في الدنيا فإن لهم نعيم الله ورضوانه ـ كما أشارت الآيات القرآنية ـ أما الذي يتخلف عن ذلك فأن المصير القاتم هو الذي سيكون من نصيبه. فمن ذا الذي سيخلصه مما تشير إليه الآية الكريمة:

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾[2].

﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً..﴾[3].

* * *

(١) سورة النحل، ١٦: ٣٠ ـ ٣٢.

(٢) سورة الحج، ٢٢: ١ ـ ٢.

(٣) سورة المزمل، ٧٣: ١٧.

وثاني المبررين، مبرر موضوعي نابع من أن الحياة الدنيا هي من صنع البارىء عز وجلّ، وتسخيرها وفق ما أمر الله سبحانه وتعالى هو الذي يوصلهم من بركتها وينجيهم من شقائها، لأن الله أعلم بما خلق، وحاشاه أن يسوق البشر نحو ما يسوءهم.

إذن فأن خير الدنيا منوط تحصيله من خلال طاعة الله والابتعاد عن معاصيه:

﴿ولو أن أهل القرىٰ آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون..﴾[1].

وقوله تعالى: **﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ❊ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل، وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم..﴾**[2].

وقوله تعالى في مكان آخر: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم والله ذو الفضل العظيم..﴾**[3].

وقف
مكتبة ...
تاشستنت عام ...

(١) سورة الأعراف، ٧: ٩٦.
(٢) سورة المائدة، ٥: ٦٥ ـ ٦٦.
(٣) سورة الأنفال، ٨: ٢٩.

وقوله: ﴿**إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين..**﴾[1].

أما شر الدنيا فلقد علمتهم تجربة التاريخ أن القوم الذين لا يتقون خالقهم فإن مصيرهم إلى الدمار والهلاك. وهذا ما توحي به أجمالاً وتفصيلاً العديد من القصص القرآنية. ففي قصة قوم النبي صالح(ص) نجد هذا الأمر بوضوح:

﴿**فأنظر كيف كان عاقبه مكرهم إنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون..**﴾[2].

والأمر نفسه يتكرر في قصة نوح(ع) هذه القصة التي تبتدأ بقوله تعالى:

﴿**كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون * إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين * فاتقوا الله وأطيعون**﴾[3].

غير أنها سرعان ما تنتهي بقوله تعالى:

---

(١) سورة الأعراف، ٧: ١٢٨.

(٢) سورة النمل، ٢٧: ٥١ ـ ٥٣ وللتفصيل انظر سورة الشعراء ٢٦: ١٤١ ـ ١٥٩.

(٣) سورة الشعراء، ٢٦: ١٠٥ ـ ١١٠.

﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين. .﴾[1].

والأمر ذاته نلمسه في قصة قوم هود(ع) فبدايتها تتمثل في أمر النبي هود(ع) لقومه (قوم عاد) بأن يتقوا الله ويطيعوه[2]. غير أنها تلتقي مع قصة نوح(ع) وقصة نبي الله صالح(ع) مع قوم ثمود بنفس النتيجة:

﴿فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. .﴾[3].

والشيء عينه نلحظه في قصة نبي الله لوط(ع) مع قومه، تبتدأ بالتقوى[4] ثم لا يلتزم قومه بأمره هذا فتكون النتيجة:

﴿فنجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزاً في الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين. .﴾[5].

ونفس الشيء في قصة أصحاب الأيكة مع النبي شعيب(ع)[6].

---

(١) سورة الشعراء، ٢٦: ١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) سورة الشعراء، ٢٦: ١٢٣ ـ ١٣٢.

(٣) سورة الشعراء، ٢٦: ١٣٩.

(٤) سورة الشعراء، ٢٦: ١٦٠ ـ ١٦٧.

(٥) سورة الشعراء، ٢٦: ١٧٠ ـ ١٧٣.

(٦) سورة الشعراء، ٦: ١٧٦ ـ ١٨٩.

ولهذا فإن التـزامهم بالتقـوى، إنما هـو حرصهم على إيفـاء ذمتهم تجاه خالفهم ورازقهم. وأيضاً لحرصهم على أن تكون آخرتهم ودنياهم رابحة من دون أي شكـل من أشكال الخسارة:

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقـون * لهم البشرى في الحيـاة الدنيـا وفي الآخـرة، لا تبـديل لكلمـات الله، ذلـك هـو الفـوز العظيم..﴾[1].

* * *

(١) سورة يونس، ١٠: ٦٢ ـ ٦٤.

ثانياً : أعمال المتقين

ما هي أعمال المتقين؟ وكيف تنظم التقوىٰ علاقة المتقين مع بارئهم؟

قد يتصور البعض ـ وهنا البعض فيما يبدو جمع كثير ـ إن أعمال المتقين، وتلك العلاقة تنظم من خلال كثرة تعبّد المتقين (بالمعنىٰ الشكلي للعبادة) وممارستهم للصلوات الكثيرة، أو ما شاكل من أشكال العبادات والرياضات الروحية. غير أن الواقع ليس هو هذا. فالمتقي ليس هو المتعبد في محراب العبادة، أو ذلك الصائم بالنهار، القائم بالليل. وإنما هو **الإنسان الذي تتملكه حالة العمل بطاعة الله والبعد عن معاصيه**، وهذه الحالة من الطبيعي أنها لا تختص بنمط تعبدي معين دون سائر الممارسات الحياتية. فالسياسي الذي يعمل وفق وجهة النظر الإسلامية الكاملة في كافة مجالات عمله في الساحة السياسية ويكون ذلك

سعياً وراء رضى الله سبحانه وتعالى هو إنسان متقي، والتاجر الذي يجري كافة الأحكام المتعلقة بالربح الحلال والامتناع عن الكسب الحرام هو الآخر إنسان متقي؛ حتىٰ ولو كانت أعماله العبادية لا تتعدى إجراء الفرائض اليومية. والقاضي حينما يقضي بالأحكام الإلهية العادلة ويتورع عن إتباع الهوىٰ في الحكم والقضاء فأنه بذلك يعمل بمقتضيات التقوىٰ. وقد يكون بذلك بل ومن المؤكد أنه أكثر مراعاة لهذه المقتضيات من ذلك العابد المنزوي في عبادته عن خدمة أبناء مجتمعه. حتىٰ وإن كان هذا العابد متفرغاً كل وقته لعبادته. ولهذا فأن العمل بالتقوىٰ ليس مدعاة للإنزواء عن الساحة الاجتماعية بكل أبعادها.

وليس هذا كله إلا بسبب ما أشرنا إليه من قبل أن التقوى ليست مرتبة إيمانية، وإنما هي حالة تقيد سلوك الإنسان مهما تعاظمت، أو تدنت مرتبته الإيمانية. فالأول مطالب بالتقوىٰ كما يقول أمير المؤمنين علي(ع):

﴿اتق الله بعض التقىٰ وإن قل، واجعل بينك وبين الله ستراً وإن رق..﴾[1].

كما أن الثاني هو الآخر مطالب بالالتزام بها. ونحن من خلال رجوعنا إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة في

---

(١) نهج البلاغة الحكمة/ ٢٤٢ ص ٥١١.

هذا الخصوص لا نجد أي تخصيص في شكل عمل المتقي أو في حدوده، فالتقوىٰ مطلوبة في كل الأعمال، ومندوبة في كل الأحوال، وكأمثلة على ذلك نشير إلى بعض الإشارات الي وردت التقوى فيها مقرونة بعمل:

أ ـ الإنفاق الاجتماعي: ﴿**فأما من أعطىٰ واتقىٰ * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى..**﴾[1].

ب ـ العقوبات: ﴿**ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون**﴾[2].

جـ ـ العبادات: ﴿**كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾[3].

د ـ الأمانة: ﴿**فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربه..**﴾[4].

هـ ـ العهد: ﴿**الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون..**﴾[5].

و ـ التفكر: ﴿**إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق**

---

(١) سورة الليل، ٩١: ٧٥.

(٢) سورة البقرة، ٢: ١٧٩.

(٣) سورة البقرة، ٢: ١٨٣.

(٤) سورة البقرة، ٢: ٢٨٣.

(٥) سورة الأنفال، ٨: ٥٦.

الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون . . ﴾[1] .

ز ـ في النصر والجهاد والاستقامة والإمداد الآلهي :

﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين * وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . . ﴾[2] .

ح ـ في الربا: ﴿لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون . . ﴾[3] .

وأمثال هذه النماذج توجد عشرات الآيات الأخرىٰ التي أشارت إلى مختلف جوانب الحياة الاجتماعية .

ولكن كل ذلك لا يعني عدم وجود فارق بين المتقي وبين من هو سائر في طريق التقوىٰ في الأعمال . ونحن هنا نستعرض جانباً من أعمال المتقين عسىٰ الله أن يوفقنا للالتزام بها والاهتداء بهديها، والانتهال من منهلها العذب .

---

(١) سورة يونس، ١٠ : ٦ .

(٢) سورة آل عمران، ٣ : ١٢٣ ـ ١٢٦ .

(٣) سورة آل عمران، ٣ : ١٣٠ .

١ ـ عباداتهم :

للأعمال العبادية وضعها الخاص في أعمال المتقين. إذ أن هـذه الأعمال هي المعبـر والمنفس عن تعلق الإنسان وتـطلعه نحـو خالقـه، والإنشداد إليـه. وهي حالـة فـطريـة نجدها لدى كل إنسان مؤمن كان أو كافر، غيـر إن صورهـا تختلف. إلا أن أصل الميل إلى العبـادة موجـود في الجميع ويتباين من شخص لآخر. ولكن هـذه الحالـة تتعاظم لـدى الإنسان المتقي لتعبر عن مدى إخلاصه وحبه لخالقه، هذا من جهـة، ومن جهـة أخـرىٰ لأنها سـاعـــة الملتقىٰ الخـالص من أعراض الدنيا لمخاطبة المحبوب والمعشوق. . . ساعة يشعر فيها المتقي بعظمة إكرامه من قبل الله عز وجل لأنه يعـطيه فـرصة مخاطبته والإصغاء إليه. ساعة يـرتقي فيها الإنسـان من دناءة التراب إلى سمو السماء، ويتخلص فيها من كل معاناة الدنيـا ليحط رحـاله في رحـاب الله ونجد في الصـورة الـرائعـة التي رسمهـا لنا إمـام المتقـين الإمـام أمـير المؤمنـين(ع) عن عبـادة المتقـين وهي تعبرعن عميق ذوبـانهم في بارئهم ـ جـل وعلا ـ خـير انموذج لـلإفصاح عن ذلـك. ففي حديثـه لهمام العـابـد ـ رض ـ قال أمير المؤمنين(ع) عنهم :

﴿ولـــولا الأجـــل الـــذي كتب الله عليهم لم تستقـــر أرواحهم في أجسـادهم طـرفـة عين، شـوقـاً إلى الثـواب، وخوفاً من العقاب، عظم الخالق في أنفسهم، فصغر مـا دونه

في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون... أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلاً، يحزّنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نصب أعينهم. وإ ذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنّوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون(*) على أوساطهم مفترشون لجباههم واكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم..﴾(١).

٢ ـ علاقاتهم الاجتماعية:

هناك نمطان من العلاقات التي تترتب عليها آثار جوهرية في بناء وحركة المجتمع. طبيعة المنهج الذي يتحكم في أي نمط منهما، يؤثر بشكل كامل على النمط الآخر، والعكس بالعكس.

النمط الأول: هو علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان. **والنمط الآخر** هو علاقات الإنسان مع الطبيعة، وقد ظل هذان النمطان محور الكثير من المشاكل الحضارية.

(*) إشارة إلى ركوعهم.

(١) نهج البلاغة، خ١٩٣ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

وخلافاً لبقية المناهج الحضارية؛ فأن الإسلام يقدم الحل الجذري لهذه المشاكل من خلال ما يمكن أن نسميه بتأطير هذه العلاقات ضمن إطار علاقات الاستخلاف والأمانة. فالإنسان مُسْتَخلَف على هذه الأرض وليس مالكاً لها وفق ما تشير الآية الكريمة:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة..﴾[1].

وهو أيضاً مؤتمن عليها: **﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها. وحملها الإنسان أنه كان ظلوماً جهولاً﴾**[2].

مما يعني أنه ليس مالكاً لهذه الطبيعة «السموات والأرض والجبال» وهو أمر يترتب عليه أعظم الآثار في رسم وتحديد علاقات الإنسان مع أخيه‌الإنسان، إذ أنه لو كان مالكاً لها لفتح أمامه باب التنافس والصراع من أجل الاستمرار والهيمنة على أكبر مساحة منها، وهذا ما يخلف وراءه جميع صور الصراع والتحايل والمكر والخديعة والظلم وسائر القيم المماثلة، على هذه العلاقات ويوسمها بها.

---

(١) سورة البقرة، ٢: ٣٠.

(٢) سورة الأحزاب، ٣٣: ٧٢.

غيـر أنه حينمـا يكون مؤتمنـاً على شيء، ومستخلفـاً عليه. فإن الصـورة تنقلب تمامـاً. إذ أن ذلك يعني لـلإنسان أن دوره ليس أكثر من دور المحافظ على الأمانة التي أؤتمن عليها. وهذا الدور لخطورته يشاركـه فيه سـائر البشـر. مما يستلزم أن علاقاته مع بقية البشر. ينبغي أن تسودها علاقات الأمـانـة، وهي العــلاقـات الي تعتمــد التعـاون بــدلاً من الصراع، والعدل بدلاً من التحايـل والخداع والظلم، والعكس كذلك دون شك.

وليس عجيباً أننا إذا مـا رجعنا إلى الإطـار الذي أطَّـر القرآن الكريم آية الأمانة المشار إليها آنفاً به لوجدناه ممثـلاً بالتقوىٰ. حيث جُعلت التقوىٰ بمثابة الحمل الكامل للأمـانة. فيما اعْتُبر خلافها «الشرك والنفاق مثـلاً» بمثابـة التخلي عن هذه الأمانة وخيانتها. ففي قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقـوا الله وقولـوا قولاً سـديداً * يصلح لكم أعمـالكم، ويغفر لكم ذنـوبكم، ومن يـطع الله ورسـوله فقـد فاز فـوزاً عظيمـاً * إنا عـرضنا الأمـانـة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منهـا وحملهـا الإنسـان إنـه كـان ظلومــاً جهـولاً * ليعــذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتـوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً..﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب، ٣٣: ٧٠ ـ ٧٣.

نجد التقوىٰ هنا هي الإطار الكامل لحمل الأمانة.

وما يلزم الإشارة إليه هنا هو أن حديث الآية عن الثواب والعذاب، إنما هو ثواب وعذاب الدنيا الذي جعله الله متوقفاً على الالتزام بالتقوىٰ أو عدمه وهو أمر سبق أن تحدثنا عنه فيما سبق عند حديثنا عن التقوىٰ ودورها في المسيرة الاجتماعية.

وهذا هو الأمر الذي دعانا إلى القول سابقاً بأن التقوىٰ تلغي أي نظرة استعلائية للإنسان تجاه أخيه الإنسان، وتجعلهم جميعاً عند شعور المساواة،ولهذا فأن من البديهي عندئذ أن تكون علاقات المتقين الاجتماعية قائمة على أساس التعاون لا الصراع، والأخوة لا العداء.

ووفقاً لجميع ذلك نجد القرآن يحفل بالتأكيد على كل ما من شأنه أن يوطّد العلاقات الاجتماعية، ويلغي كل الفوارق في هذه العلاقات ليجعل البشر أخوة متحابين وقد جاءت التقوىٰ مقرونة مع أغلب مصاديق هذا التأكيد. ورغم إننا فيما سبق قد استعرضنا عدة نصوص في هذا المجال ضمن سياقات متعددة من الحديث. غير أننا نعود لنشير إشارات سريعة إلى بعض من ذلك:

قال تعالى: ﴿**وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون**..﴾[1].

---

(١) سورة المؤمنون، ٢٢: ٥٢.

﴿وإن تعفوا أقرب للتقوىٰ..﴾[1].

﴿وتعاونوا على البر والتقوىٰ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[2].

﴿وتناجوا بالبر والتقوىٰ، واتقوا الله الذي إليه تحشرون..﴾[3].

﴿فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم..﴾[4].

﴿إنما المؤمنون أخوة، فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله﴾[5].

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم..﴾[6].

﴿وأن تحسنوا وتتقوا، فإن الله كان بما تعملون خبيراً..﴾[7].

وقال الرسول الأكرم(ص): «وأما علامة التقي فستة؛ يخاف الله، ويحذر بطشه، ويمسي ويصبح كأنه يراه، لا تهمه الدنيا، ولا يعظم عليه منها شيء لحسن خلقه..»[8].

---

(١) سورة البقرة، ٢: ٢٣٧.

(٢) سورة المائدة ٥: ٢.

(٣) سورة المجادلة، ٥٨: ٩.

(٤) سورة الأنفال، ٨: ١.

(٥) سورة الحجرات، ٤٩: ١٠.

(٦) سورة الحجرات، ٤٩: ١٣.

(٧) سورة النساء، ٤: ١٢٨.

(٨) تحف العقول عن آل الرسول(ص) ص ٢١ لابن شعبة الحراني «ره».

وقال الإمام أمير المؤمنين علي(ع): «التقىٰ رئيس الأخلاق..»[1].

ويقول الإمام أبي جعفر محمد الباقر(ع) وهو يعرِّف شيعة أهل البيت ويصفهم: «ما شيعتنا إلا من اتقىٰ الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون إلا بالتواضع والتخشع وأداء الأمانة، وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة، والبر بالوالدين، وتعهد الجيران من الفقراء وذوي المسكنة والغارمين والأيتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكف الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء..»[2].

* * *

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٤١٠ ص ٥٤٨، وقد سبق لنا أن استعرضنا في الفصل السابق نصاً مطولاً عن الإمام في خطبة المتقين في هذا الخصوص، وهو نص من المفيد الرجوع إليه.

(٢) تحف العقول ص ٢٩٥.

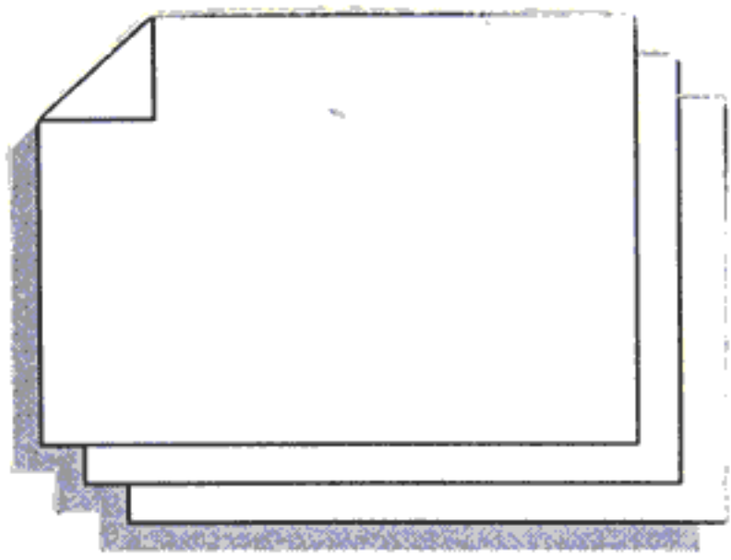

ثالثاً: العمل العقائدي للمتقين

أشرنا فيما سبق إلى أن التقوىٰ تنمي الشعور بالمسؤولية وتقطع على الإنسان أي شكل من أشكال الراحة والدعوة أو التباطؤ في المسير. وتبقي على جذوة حمل الهموم الكبيرة للأمة وهاجة ومتقّدة، ولهذا فأن العمل العقائدي للمتقين (وهو ما نعني به كل عمل من أجل العقيدة) تجده عملاً دؤوباً دونما أي كلل أو نصب، وشجاعاً دونما أي خوف أو وجل، ومقدماً دونما أي تلكؤ أو تردد، لا تهزه العواصف، ولا تريعه المخاوف، ولا تفته الصعاب، ولا يتسرب إليه اليأس والضجر. وأسباب كل ذلك معلومة لالبس فيها، لأن الذي لا يخاف على الدنيا، لا يهمه عندئذ أي مشكل من مشاكلها، أما الذي يخشىٰ على الدنيا، فأنه من البديهي أن ينحني أمام مشاكلها وصعوباتها. وهذا هو التفسير الواقعي للظاهرة التأريخية التي نلمس فيها صورتين

متناقضتين تتسم الأولى بالصبر والثبات الذي تحلىٰ به الأنبياء وسائر رواد الرسالة والعقيدة، رغم صعوبة ومشاق الفتن التي تعرضوا لها، فيما تتسم الثانية بسرعة الإنحراف والإنحناء التي وسمت تصرفات الكثير من رجالات التأريخ نتيجة لإغراء دنيوي. أو مشكلة دنيوية. أما المتقون فلأن تجارتهم مع خالقهم وربحهم في الدار الآخرة تراهم لا يبالون إن أقبلت الدنيا عليهم بكافة ملذاتها وإغراءاتها أو صبت عليهم جام مشاكلها ومصاعبها. فهم في السراء كما هم في الضراء لا تغيّرهم الظروف ولا تلونهم الأيام. ما يهمهم هو إنجاز المسؤولية التي في أعناقهم، وتحفل الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة بوصف ذلك، ولو أردنا الاستقصاء لخرج البحث عن منهجيته لذا نكتفي بالإشارة إلى الأمثلة التالية:

١ ـ عمل دونما كلل: يقول الإمام أمير المؤمنين علي(ع) في وصف المتقين: «**أوصيكم عباد الله، إن تقوى الله حمت** (منعت) **أولياء الله محارمه وألزمت قلوبهم مخافته، حتىٰ أسهرت لياليهم، وأظمأت هواجرهم** شدة حر النهار)، **فأخذوا الراحة بالنصب** (التعب)، **والريّ بالظمأ، واستقربوا الأجل، فبادروا العمل، وكذبوا الأمل فلاحظوا الأجل..**»[1].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١١٤ ص ١٦٩ ـ ١٧٠ وما بين القوسين تعاريف لمعاني الكلمات.

٢ ـ ثبات رغم صعاب الطريق: قال سبحانه وتعالى:

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولاهم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين * الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم * الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل..﴾[1].

٣ ـ استقامة وحضور دائم في خدمة الرسالة: قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، وكونوا مع الصادقين * ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، ذلك بأنهم: لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله، ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار، ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون

---

(١) سورة آل عمران، ٣: ١٦٩ ـ ١٧٣.

وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون * وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نَفَرَ من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون * يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين. . ﴾[1].

٤ ـ حسابات الربح والخسارة ليست منظورة في أعمالهم، فالمهم هو إنجاز التكليف الشرعي وأداء المسؤولية: قال تعالى:

﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً، قالوا: معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون. . ﴾[2].

وقال الإمام أمير المؤمنين(ع): «لا يرضون من أعمالهم بالقليل، ولا يستكثرون الكثير. فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا زكيّ أحد منهم خاف مما يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بي مني بنفسي اللهم لا تؤاخذني بما يقولون واجعلني أفضل مما يظنون»[3].

---

(١) سورة التوبة، ٩: ١١٨ ـ ١٢٣.

(٢) سورة الأعراف، ٧: ١٦٤.

(٣) نهج البلاغة، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

٥ ـ حرب دائمة ضد الاستكبار، وحمل دائم للهموم الكبيرة: قال تعالى:

﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً * وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيراً * الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً * ألم تر إلى الذين قيل لهم كفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب، تل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقىٰ ولا تظلمون فتيلاً﴾[1].

٦ ـ لا طاعة إلا لمن نصبته الرسالة قائداً، ولا ولاية للظالمين: قال تعالى:

﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتولّ الله

---

(١) سورة المائدة، ٥: ٧٤ ـ ٧٧.

ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون * يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين. . ﴾[1].

(١) سورة المائدة، ٥: ٥٥ ـ ٥٧.

رابعاً: الأوضاع المعنوية والنفسية للمتقين

ضمن استعراضنا لصفات وخصائص المتقين يبقىٰ علينا أن نشير إلى حقيقة الأوضاع النفسية والمعنوية التي تحكم شخصيات المتقين. ورغم أن الكثير من مصاديق هذه الأوضاع قد أشرنا إليها إلا أنه يحسن بنا أن نتوقف ولو لبرهة قصيرة عند الخلفيات التي تحكم هذه المصاديق. فلقد لاحظنا أن شخصية المتقي ليست شخصية عادية، بل هي شخصية متميزة نظراً لما تحتله من موقع في كيان الأمة، فهي شخصية تلعب دوراً قيادياً في حفظ الكيان الداخلي للأمة، وهي الشخصية المقدامة في حفظ وتنمية كيانها الخارجي. ومثل هذه الشخصية لا تتحصل من دون مراس خاص للنفس وتربية خاصة للروح. فلماذا لا تركع هذه الشخصية في الصراع؟

ولماذا لا تنكث في العهد؟

لماذا لا تتراجع في المسير؟
لماذا لا تيأس ولا ضعف أمام الصعاب؟

لماذا فيها هذه المرونة العجيبة التي تجعلها تصبر وتتحمل أمام الإنحراف الاجتماعي سعياً وراء القضاء عليه وإزالته؟

ولماذا..؟ ولماذا..؟

من شأن النص التالي الذي ننقله عن الإمام أمير المؤمنين علي (ع) أن يوضح الكثير من أجوبة هذه الأسئلة، وكذلك حقيقة الأوضاع المعنوية النفسية التي تعيشها شخصية الإنسان المتقي، حتىٰ إذا ما أردنا أن نصل إلى مستوى هذه الشخصية، فعلينا أن نسعى لترويض أنفسنا على هذه الملكات والصفات التي يذكرها إمام المتقين بقوله:

﴿**فمن علامة أحدهم إنك ترىٰ له قوة في دين، وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً** (اقتصاداً) **في غنىٰ، وخشوعاً في عبادة، وتجملاً** (التظاهر باليسر عند الفقر) **في فاقة، وصبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدى، وتحرجاً عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمّه الشكر، ويصبح وهمّه الذكر، يبيت حذراً ويصبح فرحاً، حذراً لما حذّر من الغفلة، وفرحاً بما أصاب من**

الفضل والرحمة. إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره، لم يعطها سؤلها فيما تحب قرّة عينه فيما لايزول،وزهادته فيما لا يبقى، يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل. تراه قريباً أمله، قليلاً زلَلَه، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، منزوراً (قليلاً) أكله، سهلاً أمره، حريزاً (حصيناً) دينه، ميتة شهوته..)[1].

(١) نهج البلاغة، ص ٣٠٥ وما بين القوسين توضيح لمعاني الكلمات.

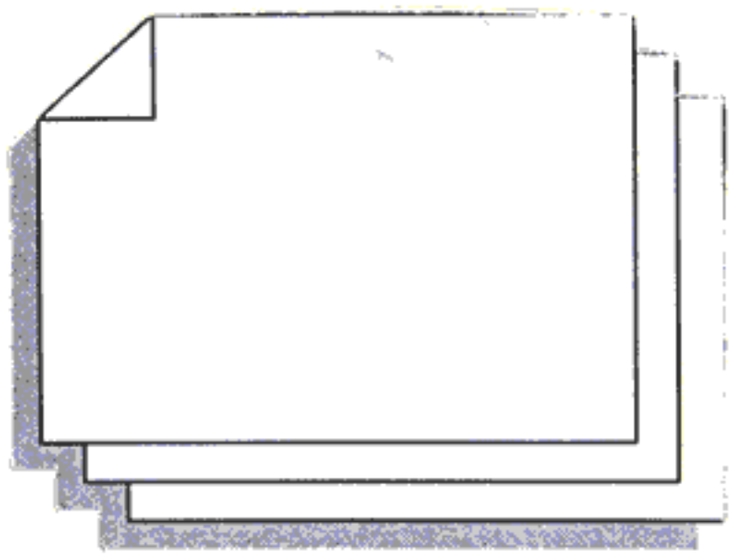

خاتمة

في خاتمة هذه الجولة في رحاب التقوىٰ والمتقين، أجد من اللازم الإشارة إلى ما يلي:

أولاً: إن ما استشهدنا به من آيات قرآنية أو أحاديث يحتل موقعاً خاصاً في إطار الفكرة المطروحة. وباعتبار أن التوقف عند كل آية من أجل تسليط الضوء على معناها يتطلب مساحة لا تتسع لها مهمة هذا البحث، ويحتاج إلى منهجة أخرى للبحث، لذا فالرجاء من القارىء الكريم أن لا يمر على هذه الآيات مروراً عابراً، خصوصاً أن بعض الأفكار قد تممت بنص شريف وهذا التخصيص نتوجه به إلى أولئك الذين اعتادوا ـ لأي سبب كان ـ حين مطالعاتهم أن لا يقرأوا الآيات القرآنية باعتبار رغبتهم في معرفة الفكرة المطروحة فحسب، دون الإنشغال بقراءة استدلالها لوضوح الفكرة، أو لأي شيء آخر.

ثانياً: وردت بعض الأمثلة في الكتاب، ومن اللازم أن نقول هنا بأننا لم نكن نستهدف استقصاء جميع الأمثلة أو النماذج المذكورة في القرآن أو الموجودة في إطار الفكرة المطروحة. بل أن ما ذكرناه إنما كان للتمثيل والاستشهاد فحسب.

ثالثاً: كان من المفروض أن يضاف إلى البحث فصل «مجتمع المتقين»، وهو فصل سبق أن دوّناه منذ زمن طويل. ولم تسنح الفرصة لإعادة صياغته بالشكل الذي يتلاءم مع منهج البحث الحالي. وإذ استميح القارىء عذراً عن ذلك. آمل من البارىء عز وجل أن يوفقني لأن أخرجه بكتاب مستقل.

رابعاً: أني أشعر أن هنا البحث ما زال فيه جملة من الموضوعات التي تحتاج إلى إثراء، وهي دعوة أوجهها إلى أصحاب الاختصاص كي يضطلعوا بمعالجة هذا الأمر الحساس والهام.

* * *

بعد كل ذلك يا عزيزي القارىء، إننا جميعاً سبق أن قرأنا الآية القرآنية الكريمة:

﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، واتقون يا أولي الألباب. .﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، ٢: ١٩٨.

عدة مرات، فهل وعينا حقيقة وأسباب جَعْل التقوى بمثابة خير الزاد.؟ نعم هل وعينا ذلك؟

وفي الختام يلزمني شكر الله سبحانه وتعالى آن منحني مثل هذا التوفيق وهداني لما فيه مرضاته.

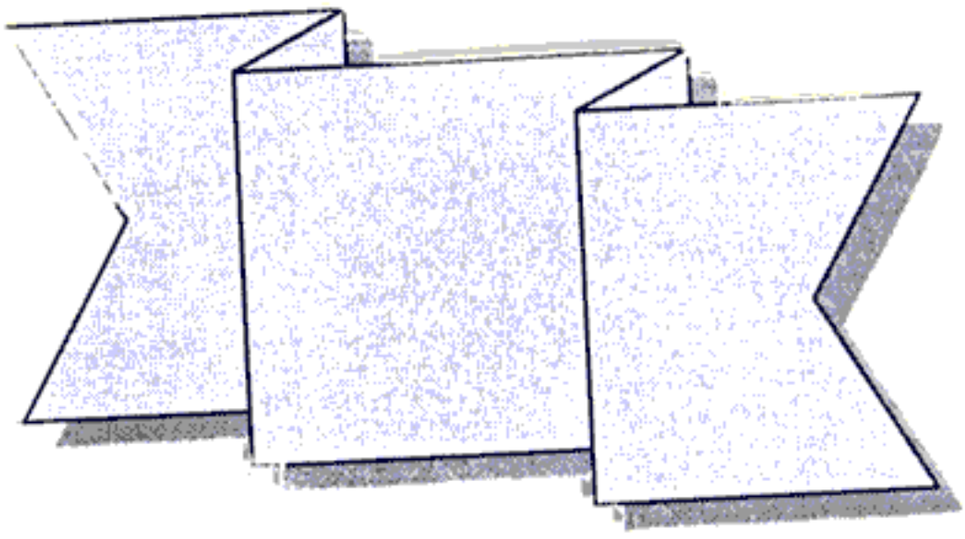

المصادر

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ نهج البلاغة — الإمام أمير المؤمنين علي(ع)
تحقيق الدكتور صبحي الصالح

٣ ـ وسائل الشيعة — الحر العاملي

٤ ـ تحف العقول — ابن شعبة الحراني

٥ ـ المدرسة القرآنية — الشهيد الصدر

٦ ـ منابع القدرة في الدولة الإسلامية — الشهيد الصدر

٧ ـ الفتاوى الواضحة — الشهيد الصدر

٨ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
محمد فؤاد عبد الباقي

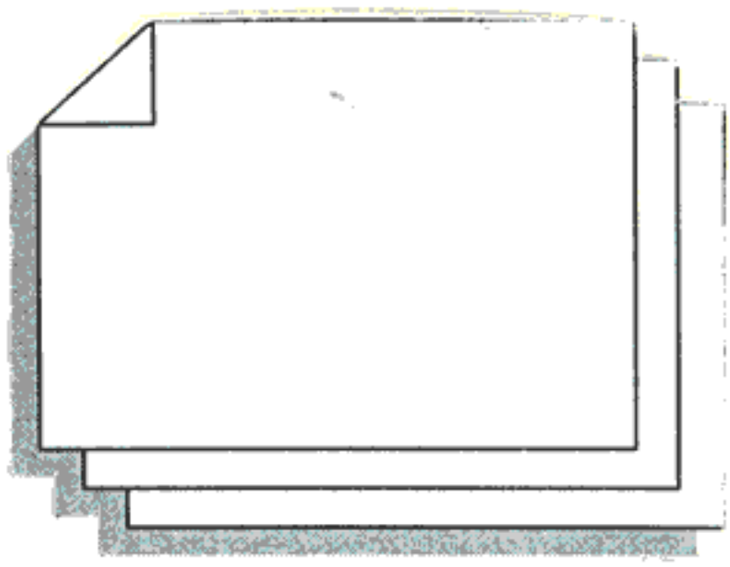

المحتويات

المقدمة ٥
الاهداء ١٣
المدخل ١٥
موقع التقوى في البناء الاجتماعي ١٩
مع المتقين في صفاتهم وخصائصهم ٦١
خاتمة ٩٣

وقف
مكتبة

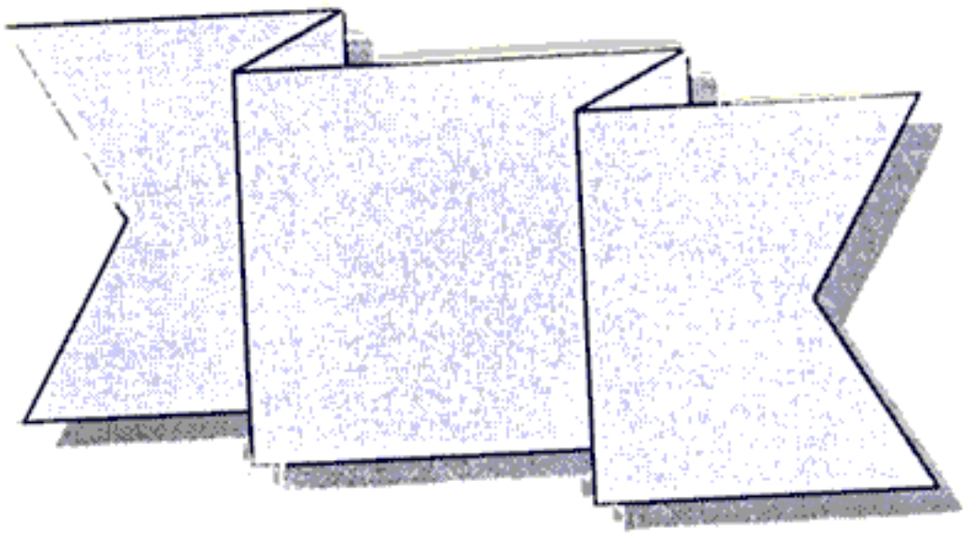

صدر للمؤلف

١ ـ القائد. القيادة والانقياد في سيرة الإمام أمير المؤمنين «بيروت»
٢ ـ الدفاع الاجتماعي في الإسلام «بيروت»
٣ ـ التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية «بيروت»
٤ ـ نشوء القومية في العالم الاسلامي «لندن»
٥ ـ حيثيات وآفاق القرار السياسي للحرب المفروضة «طهران»
٦ ـ الشهادة وحياة الأمة «بيروت»
٧ ـ دور التقوى في الحركة الاجتماعية «بيروت»

مؤلفات غير مطبوعة

و ها

١ ـ اتجاهات النفوذ البريطاني في العراق.
٢ ـ الصراع الاجتماعي في الإسلام.
٣ ـ تعليقة على كتاب اقتصادنا.
٤ ـ مفتاح الميزان «وهو فهرسة شاملة لتفسير الميزان».
٥ ـ المذهب الاجتماعي في الإسلام.
٦ ـ المدلول الاجتماعي لحب الدنيا.
٧ ـ انتظار الفرج ودوره في حياة المسلم.
٨ ـ مجتمع المتقين.
٩ ـ سلوكية الأزمة.

تحقيقات المؤلف

١ ـ عدّة مجلدات من بحار الأنوار «ولا زال العمل على البقية قائماً».

٢ ـ عدّة مجلدات من تفسير الميزان «ولا زال العمل على البقية قائماً».

٣ ـ كامل الزيارات لابن قولويه

٤ ـ الزهد للحسين بن سعيد

٥ ـ الآداب الدينية للطبرسي

٦ ـ نوادر الراوندي للسيد الراوندي

٧ ـ الدرة الباهرة من الأصداف الطاهرة للشهيد الأول

٨ ـ بشارة المصطفى لشيعة المرتضى المحدث الطبري